اللص الظريف

مغامرات أرسين لوبين

اللص الظريف

الكاتب الفرنسي المعروف
موريس لبلان

ترجمة
يوسف أبو الحجاج

الفصل الأول

غمرت الشمس البهو الكبير في قصر الدوق دي شارميراس ودبت الحياة في ذلك البناء المعتم الذي خلفته الأجيال المتعاقبة تراثا يتحدث عن تاريخ حافل بالمجد والنبل والكفاح من أجل اسم مجيد عظيم.

وهناك على الجـدران كانت صفوف طويلة من صور أولئك الذين طوتهم القبور من آل دي شارميراس. وقد انسكبت عليها الأشعة المتلألئة. فأضاءت منها وجوها صارمة رزينة لرجال الحرب والسياسة. أو وجوها ناعمة وديعة للغيد الحسان اللائي لمسن من القلوب أعماقها.

وحشى السجاجيد العجمية النفيسة. والأواني الأثرية.. والتحف النادرة كل هذا بدأ في فيض من ضياء الشمس وقد نبض بالحياة..

وتدفقت فيه عاصفة من الشعور.

على أنه بين كل ما كان جميلا ومتألقا في هذا البهو- لم يكن هناك ما هو أجمل من وجه تلك الفتاة الجالسة إلى مكتب صغير قبالة النافذة المشرفة على الحديقة.

كل جمالها من ذلك النوع الوديع الذي يفيض عذوبة ورقة. إن لها بشرة رائقة صافية يخيل إليك أنها شفافة كالبلور. أما وجنتاها فيضرجهما لون الورود.

وإذ تتأملها تحار في مبعث فتنتها: أنفتنك منها العينان المتألقتان.؟ أم الخصلات المتهدلة على الجبين الناصع كأنها ضياء ذهبي ينسكب في قدح من البلور.؟

أم الشفاة التي تغري بالقبلات.؟

ومع هذا فقد كانت هناك سحابة من الاكتئاب تظلها وكلما فرغت من واحد منها دست فيه رقعة دعوة إلى عرس مطبوعة عليها هذه الكلمات: «يتشرف مسيو جورناي مارتان بأن بخطركم بزواج ابنته جرمين بالدوق دي شارميراس.

واستمرت الفتاة تعنون العلاقات.. واحدا بعد الآخر وتضيف إلى الكومة المكدسة أمامها. وإذ تتعالى من الحديقة ضحكات الفتيات

اللاهيات يشرد ذهنها من حين لآخر. فترسل بصرها من خلال النافذة وتستقر نظرتها عليهن وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة. ثم لا تلبث أن تعاود عملها وقد انفرجت شفتاها عن تنهدة مكتومة.

وبغته ارتفع من الحديقة صوت ينادي: سونيا.! سونيا.!

ورفعت الفتاة رأسها وأجابت. نعم يا مادموازيل جرمين!

– الشاي، هل لك أن تأمري بإعداد الشاي.!

وكان الصوت رنانا تشيع فيه نبرة تدل على الاعتداء والصلف.

وقالت سونيا مجيبة: سآمر بإعداده يا مادموازيل جرمين ثم زايلت مقعدها ودقت الجرس وإذ دخل الخادم قالت له:

– هل لك أن تأتي بالشاي يا ألفريد من فضلك؟

– لكم شخص يا آنسة.

– لأربعة.. إلا إذا كان سيدك قد رجع.

– إنه لم يرجع بعد يا آنسة لقد ذهب إلى رين ليتناول الغداء ولن يعود إلا بعد ساعة على الأقل.

– والدوق؟ أظنه لم يعد بعد من جولته.؟

– نعم.. إنه لم يعد.

وتحول الفريد يريد الانصراف. فبادرته سونيا بقولها:

– لحظة واحدة.. هل أعددت الحقائب للسفر إلى باريس.؟ فقد أزفت ساعة الرحيل.. وهل استعدت الخادمات جميعا؟

– لقد استعد الرجال. أما النساء فلا أعرف من أمرهن شيئا.

إذن ينبغي أن نحثهن على الإسراع. وأرجوك أن تعجل بإعداد الشاي.

وانصرف ألفريد. وارتدت سونيا إلى منضدة الكتابة.

تناولت إحدى رقاع الدعوة.. واستقرت عيناها عليها وغمرتها موجة من الشرود. وأصابعها تعبث بالقلم وانتزعها من استغراقها ذلك الصوت المتعجرف:

ليت شعري ما الذي تصنعين يا سونيا؟ ألست ماضية في كتابة هذه الرسائل.؟

وكان الصوت غاضبا.. في نبراته حنق ظاهر.. ومن باب الشرفة المفضية إلى الحديقة أقبلت الآنسة جرمين جورناي مارتان.

وكانت وريثة ملايين جورناي مارتان تحمل في يدها مضربا للتنس. وبدت عيناها متألقتين، ووجنتاها متضرجتين احمرارا. وكان جمالها على نقيض جمال سونيا الوديعة التي تهفو كالطيف– خشنا متجردا من

عناصر الرقة والحلاوة.

وأقبلت في أثرها صديقتاها جان جوتييه وماري بولييه واقتربت من منضدة الكتابة. وأومأت ماري إلى أكداس المظاريف وهتفت:

– أكل هذا رقاع الدعوة إلى العرس!

فقالت جرمين في زهو وخيلاء:

– نعم... وتصوري أننا لم نبلغ منها بعد إلا حرف الفاء.!

فجرت ماري بأصابعها على بعض الغلافات وراحت تقرأ عناوينها: الأمير دي فرنان.. الدوقة دي فوفيز... المركيزة مارشيونيس إنك قد دعوت جميع سكان ضاحية سان جرمان.!

فقالت جان في شيء من التهكم:

– ولكنك لا تعرفين من هؤلاء المدعوين إلا عددا قليلا.

فقالت جرمين في أنفة وكبرياء:

– عفوا يا صديقتي... منذ أيام قامت مدام دي ربلزبير ابنة عم خطيبي حفلة ساهرة تكريما لي فقدمتني في خلالها إلى نصف أهل باريس. أعني أولئك الذين لا ينبغي أن أتعرف بسواهم. أولئك الذين يباح لهم أن يترددوا على داري.! النبلاء والأشراف من ذوي الألقاب العتيدة.

فقالت جان: وا أسفاه.! إننا لا نليق بأن نكون في عداد. صديقاتك إذا ما أصبحت الدوقة دي شارميراس.

- ولم لا؟

ولكنها لم تنتظر جوابا. وإنما أردفت على عجل مغيرة مجرى الحديث:

- وإياك يا سونيا أن تنسي فوليجليز.. بشارع الجامعة رقم ٣٣.

فقالت سونيا مرددة وقد تناولت غلافا وبدأت تعنونه: فوليجليز رقم ٣٣ شارع الجامعة.

فهتفت جرمين مقاطعة وقد بدت عليها أمارات التفكير:

- انتظري.! لا تلصقي الغلاف. ليت شعري أتستحق فوجليز صليبا واحدا أم صليبين أم ثلاثة صلبان.

فصاحت ماري وجان في نفس واحد:

ما معنى هذا.؟

صليب واحد معناه دعوة إلى الكنيسة.. وصليبان دعوة إلى الكنيسة ومأدبة العرس.. وثلاثة صلبان دعوة إلى الكنيسة والمأدبة وحفلة توقيع العقد. فما رأيكما.؟ فقالت جان:

– لا تسأليني رأيي فما سبق لي شرف التعرف بهذه السيدة العظيمة.

فقالت ماري: ولا أنا.

فهتفت جرمين:

وأنا أيضا لا أعرفها، ولكن اسمها مدرج في قائمة صديقات المرحومة الدوقة دي شارميراس والدة جاك. ولقد كانت الدوقتان على صلات وثيقة من المودة. وقد اعتزلت الدوقة دي فوليجليز المجتمعات. ولكن الناس مازالوا يحترمونها لتقواها وورعها.

فقالت جان: إذن أشيري على رقعتها بثلاثة صلبان ولكن ماري انبرت تقول: لو أني كنت مكانك لما تصرفت في الأمر من تلقاء نفسي. ولرجعت فيه إلى رأي خطيبي.

– خطيبي..! رباه..! أنه لا يحفل بشيء من هذا كله! لقد غيرته هذه السنون السبع الأخيرة.. منذ سبعة أعوام لم يكن ينظر إلى الحياة إلا نظرة العبث واللهو.. تصوري إنه لم يقم برحلته إلى القطب الجنوبي إلا استجلابا للشهرة ورغبة منه في أن يجعل الصحف والناس يتحدثون عنه.. لقد كان في تلك الأيام دوقا حقيقيا..!

– واليوم..؟

– اليوم..! إنه أصبح يزدرى المظاهر.. وليست في نفسه ذرة من

الخيلاء.! لقد انقلب رزينا حادا كالقضاة..

قالت سونيا معترضة: والله إني لأراه مرحا طروبا..! فنظرت إليها جرمين شزرا وقالت:

– إنه لا يعرف المرح إلا حين يعمد إلى التهكم على الناس...! أما فيما عدا ذلك فهو الوقور الصموت..! فقالت جان: أغلب ظني أن هذا التطور قد راق لأبيك..

– بلا ريب... وهو ما ذهب اليوم يتغذى مع الوزير في رين إلا ليسأله وساما لجاك.

قالت ماري: آه. ما أجمل أن يزين وسام اللجيون دونير صدر الدوق!

فقالت جرمين في استخفاف. يا عزيزتي.. إن وسام اللجيون دونير لا يصلح إلا لأبناء الطبقة الوسطى. ولكنه بالنسبة إلى دوق شيء لا قيمة له.

وأقبل ألفريد يحمل أواني الشاي فصفها على مائدة صغيرة عن كثب من الشرفة.

وبغته أومأت جرمين إلى تمثال صغير قائم على البيانو وقالت:

– ما هذا.؟ من الذي وضع التمثال هنا.؟

فأرسلت إليه سونيا بصرها. وقالت في استغراب:

– عجبا.؟ عندما جئنا كان فوق الدولاب في موضعه المألوف.

فقالت جرمين مخاطبة الخادم:

– هل دخلت البهو أثناء وجودنا في الحديقة يا ألفريد؟ فقال ألفريد مجيبا: كلا يا سيدتي.

– ولكن لا ريب أن شخصا ما دخل هذا البهو ونقل التمثال.؟

– إني لم أسمع وقع أقدام مطلقا يا سيدتي.

– هذا عجيب جدا.

فقالت سونيا: نعم.. عجيب جدا. فالتماثيل لا تنتقل من مكانها من تلقاء نفسها.

وراحوا جميعا يحملقون في التمثال. كأنما توقعوا أن يروه ينتقل وحده إلى موضع آخر بين أسماعهم وأبصارهم وتناوله ألفريد فرده إلى مكانه فوق أحد الدواليب. ثم غادر الغرفة.

وصبت سونيا الشاي في الأقداح وقدمتها إلى الحاضرات ثم رحن يتحدثن عن حفلة الزفاف. وثوب العرس والهدايا التي تلقتها جرمين.

وقالت جرمين: ألم يسأل عني أحد تليفونيا من بيت أبي في

باريس..؟

وإذ أجابتها سونيا بالنفي استرسلت جرمين:

– هذا شيء يضايق.. إذ معناه أن أحدا لم يذكرني بهدية اليوم!.

وهزت كتفيها في غيظ شأن الطفلة التي أفسدها التدليل، فقالت سونيا ترفه عنها: هذا يوم الأحد. والمتاجر لا تفتح فيه أبوابها.

وقالت جان: وأين دوقك الجميل؟ ألا ينوي أن يتناول معنا الشاي.

– إني أتوقع عودته في منتصف الساعة الخامسة فقد ذهب يزور الأخوين دي بوي. وسيدعوهما إلى تناول الشاي فهتفت ماري: ومتى ذهب إليهما.؟

– بعد ظهر اليوم.

هذا محال. فقد ذهب أخي بعد الغذاء لزيارة أندريه وجورج فقيل له أنهما سافرا منذ الصباح الباكر. ولن يعودا إلا في ساعة متأخرة من الليل.

فقالت جرمين وقد قطبت جبينها: إذن. إذن لماذا ذكر لي الدوق هذا.

– لو أنني كنت مكانك لتحريت الأمور.! إن بعض الدوقات يا صديقتي يتفننون فن الكذب وانتحال الأعذار.!

اللآلئ..! اسمعي يا فيكتوار. يجب أن تغلقي الأبواب جيدا..

وأودعي العقد في الدرج السري. شكرا جزيلا.. سأراك غدا يا فيكتوار.

وردت السماعة مكانها وتحولت إلى صديقاتها مقطبة الجبين وهي تقول: إن أصدقاء أبي وأقرباءه يبعثون إلي بهدايا قيمة. أما الآخرون فلا يرسلون إلا مدى الأوراق.! هذه غلطة جاك على أية حال. فهو لا يحفل بالمظاهر والعلاقات الاجتماعية.!

إن أهل ضاحية سان جرمان لا يكادون يعرفون أننا خطيبان! فابتسمت جان وقالت متهكمة:

– ألعلك تريدين منه أن يجوب الأسواق والطرقات يحمل على ظهره لوحة فيها النبأ العظيم.؟

– تهكمي ما شئت.! ولكن اعلمي أنه كان ينبغي أن يعقل هذا.! ولقد كان هذا هو رأي ابنة عمه مدام دي ريلزبير. لقد حدثتني في ذلك عندما قابلتها في الحفلة الساهرة التي أقامتها تكريما لي.

فهمست جان مخاطبة ماري في صوت منخفض: إنها لن تمل الحديث عن هذه الحفلة الساهرة.

– وساد الصمت برهة. ثم قالت ماري بغتة:

– وبمناسبة الحديث عن مدام ريلزبير.. أتعليمن أنها اليوم فريسة

القلق لأن ابنها سيشترك في إحدى المبارزات؟ فقالت سونيا متسائلة. ومن الذي سيبارزه؟

– لا يدري أحد. لقد تلقت خطابا من الشهود.

فقالت جرمين: إني مطمئنة إلى نتيجة المبارزة. فإن ريلزبير مبارز من الطبقة الأولى، وما هزمه أحد حتى اليوم.

ولكن سحابة من القلق شاعت بغتة في وجه سونيا وبدت كأنما نمت عيناها عن الخوف وقالت:

– أما كان ريلزبير صديقا حميما لخطيبك في يوم من الأيام.؟

– طبعا. وما تعرفنا بجاك إلا عن طريق آل ريلزبير. فقالت ماري: وأين كان ذلك.؟

– هنا. في هذا القصر نفسه.

فقالت ماري في استغراب: عجبا.. أيتم التعارف في قصره.؟

– نعم.. هذا هو ما وقع فعلا... وكم في الحياة من غرائب..! فبعد شهور من وفاة والد جاك أراد أن يبيع هذا القصر ليهيئ المال اللازم للإنفاق على رحلته إلى القطب الجنوبي ولكن لولا أن أبي كان مصابا بالروماتيزم لما كان منتظرا أن أصبح الدوقة دي شارميراس.

فقالت جان في استغراب ولكن أية علاقة بين روماتيزم أبيك وبين زواجك بالدوق دي شارميراس...؟

– علاقة وثيقة... كان أبي يخشى أن يكون هذا القصر مرطوبا.. فما كان من جاك إلا أن دعاه إلى الإقامة هنا ليبرهن له على أنه قصر صحي. وفعلا أمضينا في هذا القصر ثلاثة أسابيع.

فقالت ماري: الحق أن هذا السلوك من الدوق ينطوي على نبل عظيم.

فانبرت سونيا قائلة: وإنه دائما لكذلك.

فهتفت جرمين. هذا صحيح. وإن كنت مع ذلك أنفي عليه اعتزاله المجتمع.. وعول أبي على شراء القصر.. أما أنا فخطبت جاك.

فهتفت ماري: إذ التي خطبته.؟ ولكنك كنت إذ ذاك في السادسة عشرة من العمر.!

فضحكن جرمين وقالت: ومع ذلك فينبغي أن تدرك الفتاة حتى وإن كانت في السادسة عشر. وإن الدوقية لقب عظيم! أصغر من أن أتزوج. فقد وعدت جاك بأن أنتظر أوبته.

فهتفت ماري في مرح: إذن فقد كانت علاقة حافلة بالجو الروائي.

فقالت جرمين: هذا صحيح.!

ولكنها ما لبثت أن مطت شفتيها وأردفت:

- ولكن لو أنني عرفت أنه سيمضي كل هذه السنين الطوال في الأصقاع الجنوبية لترددت في الأمر كثيرا قبل أن أقدم.!

- أصبت.. فما كان من الإنصاف أو المجاملة أن يعدك بالتغيب ثلاثة أعوام ثم يعود إلا بعد سبعة.!

فقالت جان وعلى شفتيها الخبث المعهود:

نعم.. لقد رجع بعد أن كاد يولي شباب جرمين.!

فقالت جرمين في غضب وتهكم. شكرا على هذا الإطراء.

- ماذا.؟ أتنكرين إنك اليوم في الثالثة والعشرين. وإن هذه السن هي المرحلة الأخيرة من مراحل الشباب.! فبادرت جرمين تقول: ومع ذلك فإني لم أبلغ الثالثة والعشرين بعد.! وتصوري سوء حظي؟! لقد مرض الدوق مرضا شديدا فأقام في مونتفديو تحت العلاج وما كاد يشفى حتى عاود رحلته لأنه ليس بالرجل الذي يتراجع أو يرضخ وقد استمر في رحلته الطويلة.. عاما بعد عام.. لا يبعث إلينا بكتاب أو بكلمة واحدة.! وقد مرت بنا ستة شهور ونحن نعتقد أنه قد مات.

فصاحت سونيا: مات.! أوه.! ما كان أشقاك إذن.!

فتحولت إليها جرمين وقالت: بالله عليك لا تذكريني بهذه الأيام المفجعة.!

فهمست جان متهكمة في أذن ماري: لا ريب أنها كانت تحب أن تصبح دوقة.!

واسترسلت جرمين في حديثها قائلة: ولحسن الحظ فوجئنا ذات يوم بخطاب منه وبدأت رسائله بعد ذلك تتوالى علينا. ومنذ ثلاثة شهور تلقينا برقية منبئة بعودته.

وأخيرا يرجع إلينا الدوق.!

فقالت سونيا: لا ريب أنك تعذبت كثيرا. سبعة أعوام وأنت تنتظرين عودة الرجل الذي تحبين.!

فابتسمت جان وقالت في تهكم: آه.! يلوح لي يا آنسة كريتشنوف إنك فتاة خيالية.! إن الأمر كله لم يكن يعدو نشوة اللقب.

وينبغي أن ترقبيه جيدا! وإلا أفلت منك.

وابتسمت جان ابتسامة تنطوي على الخبث. وتضرج وجه جرمين احمرارا واتقدت عيناها. وقالت في جفوة ظاهرة:

– أشكرك.. إن لي بجاك ملء الثقة.! وإني لشديدة الاطمئنان إليه

فهزت جان كتفيها وقالت:

– إيه ما دمت مطمئنة إليه فلا شأن لي بالأمر.

وقطع الحديث رنين جرس التليفون.. وفزعت إليه جرمين. وآدت البوق من فمها وقالت:

– هالو.. أهذا أنت يا بيير.؟ أوه.. أنت فيكتوار؟ نعم.؟ آه. جاءتني بعض الهدايا.! عال جدا.؟ ما هي؟ ماذا تقولين.؟ مدية لتقطيع الورق.! يا إلهي.! ومقطع آخر.؟ ودواة أخرى من طراز لويس السادس عشر.! رباه.!! ما أبغض هذه الهدايا إلى قلبي.! ومن أصحاب هذه الهدايا.؟ آه.. الكونت رودلف والبارون دي فاليري! ثم تحولت إلى صديقاتها وهي لا تزال ممسكة بالسماعة وهتفت:

– وعقد من اللؤلؤ أيضا يا صديقاتي.! عقد كبير. فهتفت ماري: إنها هدية رائعة.!

وعادت جرمين تتكلم في التليفون قائلة:

– ومن الذي أرسل هذا العقد؟

ثم ما لبثت أن أردفت وفي صوتها نبرة من اليأس:

– إنه صديق لأبي.! ومع ذلك فحسبني أنه عقد من

ماذا تعنين.؟

– أعني جرمين لم تكن تحب من الدوق إلا لقبه وقصره التاريخي العتيد.! ينبغي أن تصبح الفتاة دوقة.! أليس كذلك.؟

فقالت ماري باسمة: طبعا.. طبعا.. وبسبب هذا العناد كادت جرمين تتزوج رجلا آخر في خلال الأعوام السبعة! نعم.. لقد كادت تصبح بارونة.؟

فقالت سونيا متسائلة: أصحيح هذا.؟

– كيف.؟ أما سمعت بالنبأ يا آنسة كريتشوف.؟

لقد أصبحت شبه خطبة لابن عمه الدوق. أعني البارون دي ريلزبير.

فقالت جرمين: تهكمي ما شئت أنت وماري. ولكنكما لا تعلمان أن البارون هو الوريث الوحيد للقب ابن خاله الدوق دي شارميراس. فلو إنني تزوجت لآل إليه اللقب حتما في يوم من الأيام ولأصبحت دوقة أيضا.؟

فقالت جان:

– وكل ما يعنيك من أمر هذا الزواج هو ذلك اللقب العتيد.!

ثم ما لبثت أن تناهضت للقيام وهي تقول: والآن ينبغي أن

ننصرف فقد وعدنا الكونتس دي جروجان بزيارتها اليوم. وشيعتها جرمين حتى باب القاعة. وإذ أغلقته تحولت إلى سونيا قائلة:

-آه.. لشد ما أبغض هاتين الفتاتين. إن لهما لسانا لذاعا مقيتا.

فقالت سونيا: إنهما تبدوان طيبتي القلب!

- آه.. إنهما أيتها البلهاء تكادان تموتان حسدا.. نعم إنهما تحسدانني على اللقب الذي سأظفر به.

وضحكت متشفية.

الفصل الثاني

رجعت سونيا إلى عملها تكتب عناوين الخلافات وتودعها رقاع الدعوة على حين جلست جرمين على كثب منها تلقي عليها من حين لآخر سؤالا سخيفا أو تذكرها بأمر لا يحتاج إلى تذكير.

وأخيرا فتح الباب ودخل ألفريد ينبئها بأن رجلين يطلبان لقاءها.

– ومن يكونان؟ أهما الإخوان دي بوي؟

– إنهما لم يذكرا اسميهما يا سيدتي.

فقالت جرمين. أحدهما كهل والآخر في عنفوان الشباب؟

– نعم يا سيدتي.

– وهذا هو ما ظننت.. أدخلهما إذن.

– نعم يا سيدتي.. وهل تحب سيدتي أن أبلغ فيكتوار شيئا عند

وصولنا إلى باريس.؟

- كلا. ولكن متى ترحلان.؟

- بقطار الساعة السابعة.

وهل أعددتم كل شيء..؟

- نعم. كل شيء.. وقد مضت المركبة إلى المحطة بالحقائب الثقيلة. ولم يبق إلا حقائب اليد الصغيرة.

- حسنا.. أدخل إذن مسيو دي بوي وأخاه.

وتناولت مقعدا وأدنته من النافذة وجلست عليه. في انتظار الضيفين. واستقرت عيناها على النافذة فهتفت:

- هذا عجيب..! ما هذا..؟

فقالت سونيا متسائلة دون أن ترفع رأسها عن الرسائل المكدسة أمامها: أي شيء..؟

- النافذة..! انظري..! إن أحد الألواح الزجاجية منزوع من مكانه. إنه يبدو كأنه قطع قطعا..!

فقالت سونيا وهي تنظر إلى فجوة اللوح المنزوع:

- وإنه لكذلك.!

- ألم تفطني إلى الأمر من قبل؟

- كلا. ولا ريب أن اللوح سقط في الحديقة.

وفتح الباب في هذه اللحظة فتحولت عن النافذة إلى استقبال الزائرين. وعلى عتبة الباب وقف رجلان يبدو التشابه بينهما قويا لا يفرق بينهما إلا السن فأحدهما كهل والآخر لا يزال في عنفوان الشباب وحسب المرء نظرة واحدة ليدرك أنهما أب وابنه.

ونظرت إليهما جرمين في دهش إذ كانت تتوقع أن يكون الزائرين هما الأخوان دي بوي.

وتقدم الكهل صوب الفتاة وانحنى لها باسما وقال:

- إنني مسيو كارولیه من أصحاب الأملاك في رين. وحائز على وسام الشيفالييه.. وهذا هو ابني يا سيدتي.

وقد جئنا من رين في هذا الصباح وتغدينا في مزرعة كيرلور وهمست سونيا: هل آمر بإعداد الشاي لهما.؟

فقالت جرمين في حدة وإن بدا صوتها منخفضا: كلا بالطبع.؟

ثم تحولت إلى مسيو كارولیه قائلة: وما غرضكما من هذه الزيارة.؟

- لقد جئنا تلبية للإعلان الذي قرأناه في صحيفة مسيو جورناي

مارتان غائب من داره. وإن ابنته موجودة فلم يكن في وسعنا.. نعم. لم يكن في وسعنا بأية حال من الأحوال أن نحرم أنفسنا شرف مقابلتك..

وما أن نطق الرجل بهذه الكلمات حتى استوى جالسا على أحد المقاعد دون أن ينتظر دعوة من ربة الدار. وحذا ابنه حذوه.

وبوغتت جرمين بذلك فراحت تنظر في حيرة وارتباك إلى سونيا.

وما لبث كارولیه الابن أن قال: آه.! ما أجمل القصر يا أبتاه.!

فقال الأب مجيبا: نعم. إنه قصر رائع يا بني.

وأعقب هذا سكتة قصيرة.. ثم قال الأب:

ــ نعم.. إنه قصر رائع يا سيدتي..؟

فقالت جرمين: نعم. ولكن اسمح لي أن أسألك عن الدافع لك إلى زيارة أبي.؟

وتراجع مسيو كارولیه قليلا في مقعده. ولف ساق بساق.. ووضع أصابعه في جيوب صدريته. وقال:

– لقد جئنا ننشد مقابلة أبيك وقد أخبرنا الخادم أن الإعلانات برين.

لقد جاء فيه أن مسيو جورناري مارتان يريد أن يبيع إحدى سياراته. ولقد كان ابني دائما مولعا باقتناء سيارة يرتقي بها التلال.

أعني أن تكون قوتها ستين حصانا.

فقالت جرمين: إن لدينا سيارة قوتها ستون حصانا- ولكنها ليست معروضة للبيع. بل الواقع أن أبي قد استقلها اليوم.

- ربما كانت هي السيارة التي رأيناها في فناء الإصطبلات؟

- كلا، فتلك قوتها أربعون حصانا، وهي خاصة بي. ولكن إذا كان ابنك مولعا حقا بارتقاء التلال بالسيارات. فإن لدينا سيارة ثالثة قوتها مائة حصان وهي التي يريد أبي بيعها. انتظر إن لدينا لها صورة فوتوغرافية. أين الصورة يا سونيا. لا ريب أنها موجودة في مكان ما.

ونهضت الفتاتان وراحتا تبحثان عن الصورة في أدراج منضدة قريبة من النافذة. وما كادت الفتاتان تديران ظهريهما إلى الزائرين حتى انطلقت يد كارولیه الفتى في حركة سريعة أشبه بانطلاق السهم. فانطبقت على التمثال الفضي الصغير الموضوع فوق الدولاب المجاور له ودسه في جيبه.

وكان الأب ملقيا ببصره إلى الفتاتين يرقبهما حتى لكأنه لا يرى سواهما ولكنه همس في صوت غاضب:

- أعده مكانه أيها المجنون.! أعده.!

ولكن الشاب زمجر متمردا فعاد الأب يقول:

- عليك اللعنة.! أعده مكانه.!

وبنفس السرعة انطلقت يد الابن فاخرج التمثال من جيبه ورده إلى حيث كان. وانفرجت أسارير الأب وتنفس الصعداء.

وجاءت جرمين تحمل إليه الصورة. فقال وهو يتأملها في إعجاب:

- آه.! هذه هي السيارة المنشودة.! قوتها مائة حصان. ترى ما هو أقل سعر تقبلون بيعها به.!

فقالت جرمين: هذه مسألة لا دخل لي فيها.! فينبغي أن تقابل أبي وهو لا يلبث أن يرجع من رين.

فنهض مسيو كارولين واقفا وهو يقول: حقا سننصرف الآن ولكننا سنعود عاجلا.. وإني لآسف إذ أزعجتكما يا سيدتي بهذه الزيارة غير المنتظرة.

فردت عليه جرمين مجاملة. فانحنى لها قائلا:

- إلى اللقاء إذن.؟

وغادر القاعة مع ابنه.

وقالت جرمين تخاطب سونيا: أوه.! يا لهذه المخلوقات التي لا تطاق ومع ذلك فينبغي أن نجاملهما ما داما سيشتريان السيارة.!

ثم تحولت إلى النافذة وقالت:

– الحق أن مسألة هذا اللوح الزجاجي تحيرني.! ليت شعري كيف حدث هذا.! ومن الغريب أيضا أن جاك لم يأت الآن.. لقد أخبرني بأنه سيعود فيما بين منتصف الخامسة والخامسة.

فتهاوت جرمين في أحد المقاعد. ولكنها لم تلبث فيه إلا عشرين ثانية ثم انبعثت واقفة مرة أخرى وهي تقول:

– الساعة الآن الخامسة إلا عشر دقائق! لقد تأخر جاك.!

ومشت إلى النافذة وراحت تطل على الأرض الفضاء والغابة المتصلة بالقصر. وقالت سونيا محاولة أن ترفه عنها:

– لعله ذهب إلى قصر دي يلزيير لزيارة البارون ابن عمه.. وإن كنت أعتقد أن الدوق لم يعد يجفل بالبارون! إن من يراهما يظن أن كلا منهما يكره صاحبه.

فقالت جرمين: آه.! ألاحظت ذلك إذن.! ولكني لا ألوم إلا جاك فهو يظهر الكثير من عدم المبالاة. ولقد رأيته منذ أيام ونحن في قصر دي ريلزبير يتشاحن من البارون فقالت سونيا في انفعال: يتشاحن معه.؟

– نعم.. وعند انتهاء الزيارة تصافحا بطريقة تدل على الغضب.

– إذن فقد تصافحا ايدا بيد.؟

– كلا.. لقد اكتفيا بإحناء الرأس في جفاء وخشونة.

وهبت سونيا واقفة وقد بدأ الخوف والانزعاج في عينيها وغمغمت:

– إذن.. إذن..

ولكن الكلمات اختنقت في حلقها. فقالت جرمين وقد أقلقها ما رأته من فزع في وجه سونيا:

– إذن ماذا.؟ تكلمي.!

فصاحت سونيا: المبارزة.! مبارزة البارون دي ريلزبير.!

– ماذا.؟ إنك لا تعتقدين أنه سيبارز جاك.– لا أدري.! ولكن هذه المشاحنة التي جرت بينهما.. وفي هذا الصباح كان سلوك الدوق غريبا. وخروجه مع الأخوين دي بوي على ظهور الجياد.

فصاحت جرمين: آه.. طبعا.. كل هذا محتمل بل إنه مؤكد.!

فصاحت سونيا: ولكن الأمر فظيع.. تصوري.. تصوري أنه قد يصاب بسوء.!

فقالت جرمين في زهو وخيلاء: إنني أعلم السبب في هذه المبارزة.! إن الدوق إنما يتبارز من أجلي أنا.

وجعلت تثب في أرجاء القاعة في مرح وابتهاج وجعلت سونيا تحملق فيها وقد غامت عيناها.. كان وجهها شاحبا كوجوه الأموات. وبدنها يرتعد اضطرابا. أما جرمين فلم تكن تفكر إلا في أن الدوق يتبارز من أجلها.

وقالت سونيا في انزعاج:

تصوري أنه يبارز الآن مبارزا من الطبقة الأولى.. أنت نفسك قلت منذ لحظات إنه مبارز لا يقهر.

وسترت وجهها بيديها حتى لا ترى الصورة المفزعة.

أما جرمين فكانت في هذه اللحظة تتأمل جمالها في المرأة مفتونة معجبة.

ومشت سونيا إلى النافذة كأنما تريد أن تذرع الأرض ببصرها لترى الدوق في مبارزته.

وبغتة صاحت: آنسة جرمين.. انظري... انظري. لا..

- ماذا..

- فارس.. انظري.! هناك.! إنه هو.. الدوق.!

فقالت جرمين: أتظنين ذلك؟- إني موقنة.!

فكان كل ما قالت جرمين: حسنا. يسرني أنه رجع في الوقت

المحدد. إنه يعلم أنني أمقت أن أظل في انتظاره.! لقد قال لي سيعود في الساعة الخامسة على الأكثر وها هو وها هو ذا قد رجع.

فقالت سونيا. ولكن من المحال أن يصل في الموعد المضروب. إذ لابد أن يدور حول القصر ليبلغ الباب.

فإن الأرض التي تفصلنا عنه ملأى بالأعشاب والحفر ولا يستطيع الجواد السير فيها.

ومع ذلك فها هو ذا قاد إلينا في خط مستقيم.. وكان هذا صحيحا فقد انحرف الفارس عن الطريق.

الفصل الثالث

أخذت سونيا موجة من الفرح الجارف إذ رأت الدوق دي شارميراس مقبلا لم يصبه أذى من أثر المبارزة وظفرت الدموع من عينيها. فتنحت عن النافذة واتجهت إلى مائدة الشاي حتى لا تفطن جرمين إلى عبراتها.

وأقبل الدوق من الباب المتصل بالحديقة. وقال في صوته الجذل الفياض المرح حين رأى سونيا إلى جانب مائدة الشاي.

إذا كان هذا الشاي لأجلي. فإني أريد قدحا طافحا وثلاث قطع من السكر مع القليل من الكريمة.

وأرسل بصره إلى ساعته وقال: حسنا.! لقد جئت في الموعد تماما.!

وانحنى أمام جرمين ومال على يدها يقبلها على طريقة الممثلين..

وقالت جرمين تسأله: أتبارزت اليوم..؟

فنظر إليها في استغراب وقال/ عجيب جدا..! أبمثل هذه السرعة جاءك نبأ المبارزة!

وما كان سببها...؟

كان كل ما يعنيها من الأمر أن تسمع من بين شفتيه أنه إنما تبارز من أجلها.. ولكن قبل أن يجيب انبرت سونيا قائلة في قلق:

- إن سموك لم تصب بجرح..؟

فابتسم لها في رقة وقال: حتى ولا بخدش فقالت جرمين في صوت تبدو فيه نبرات الحنق: سونيا.. عجلي بإنجاز هذه الرقاع من فضلك.

ثم التفتت إلى الدوق وقالت: أكنت تبارز من أجلي؟

-وهل يسرك أن تعلمي أنني بارزت من أجلك؟

نطق بهذه الكلمات وقد التمع في عينيه بريق من السخرية.

قالت جرمين: نعم يسرني طبعا. ولكن لا. إنك لم تبارز من أجلي.! إنك بارزت من أجل امرأة أخرى.! فابتسم وقال: إذا كنت قد بارزت بسبب امرأة فلن تكون هذه المرأة سواك بطبيعة الحال.

فأسرعت تقول: طبعا.. طبعا.. فليس معقولا أن تبارز من أجل امرأة أخرى.! ليس معقولا أن تبارز من أجل سونيا مثلا أو من أجل

خادمتي.! ولكن ما سبب هذه المبارزة.؟

– أوه.. سبب سخيف.! كنت قليل الحلم ضيق الصدر وقد قال دي ريلزبير ما أغاظني.

– إذن ما كانت هذه المبارز من أجلي.! وما دام إنها ليست بسببي فلا ريب أنها مبارزة سخيفة لا داعي لها على الإطلاق.

واكتأب وجه جرمين بخيبة الرجاء.. واشتد بريق السخرية في عيني الدوق دي شارميراس. وقال:

ولكن هي أنني قتلت في هذه المبارزة.. فعند ذاك كان الناس أحرياء بأن يقولوا: لقد قتل الدوق دي شارميراس في مبارزة من أجل الآنسة جرمين جورنان مارتان.! ولقد كان يسرك بلا ريب سماع هذا النبأ.!

ولم تكن عيناه وحدهما الساخرتان. إنما كانت نبرات صوته حافلة بالسخرية أيضا.

وقالت جرمين في دلال: آه. هاأنت ذا قد بدأت تغيظني مرة أخرى.!

– أنا. لا محال أن يجري لي هذا الخاطر ببال أيتها العزيزة.

– وما كان من شأن البارون دي ريلزبير،؟ هل جرح.؟

فضحك الدوق ضحكته الرنانة المرحة وقال:

– البارون..؟ مسكين! إنه لن يغادر فراشه قبل انقضاء ستة شهور.

فبدا الجزع في وجه جرمين وهتفت. يا إلهي.!

وكانت سونيا تختلس النظر في خلال هذا الحديث إلى وجه الدوق.. فترى ما يشيع فيه من أمارات الانفعال لكل كلمة ينطق بها. لم يكن له هذا الوجه الجامد الرصين.. وإنما كان له وجه يتدفق فيه سيل من المشاعر الطاغية. وكانت إذا التقت عيناها بعيني الدوق غضت من بصرها أو أشاحت بوجهها وقد تضرجت وجنتاها حياء.

وإذ فرغ الدوق من تناول الشاي أخرج من جيبه علبة صغيرة من الجلد وهو يقول:

يا إلهي.! لقد انقضت ثلاثة أيام لم أتشرف في خلالها بتقديم هدية إليك.

وانكشف غطاء العلبة عن عقد من اللآلئ ذات السناء الباهر فهتفت جرمين: آه.! ما أبدعه.!

وأسرعت إلى سونيا تريها العقد ثم تحولت إلى المرآة. ووقفت تطالع فيها جمالها وقد زان جيدها العقد اللؤلؤي.

واقترب الدوق من سونيا وهو يقول:

–يا إلهي.! أكل هذه رقاع الدعوة إلى الزفاف.؟

فأجابته جرمين في ذهول وفخار: وتصور أننا لم نبلغ بعد إلا حرف الفاء.؟

– عجبا.! ألعلك نويت أن توجهي الدعوة إلى الناس جميعا.

فقالت جرمين في جذل: سيكون زفافي حفلة الموسم التي لا تنسى.!

وإني لموقنة أنه سيحدث مصادمه بين السيارات لشدة الزحام.. أو على الأقل سيغمى على بعض السيدات.

فقال الدوق: ينبغي إذن أن تتخذي الحيطة حتى لا يقع شيء من هذا القبيل.؟ فهزت كتفيها بلا مبالاة وقالت: وهل تحسب أن وقوع هذه الحوادث يضايقني.؟ إنها على النقيض ستترك في الأذهان أثرا لا ينسى. فيظل الناس يتحدثون عن حفلة عرسي شهورا طوالا.!

وأبرقت عينا الدوق. وكادت نظراته توحي بالازدراء ولكنه كتم ما جاش بصدره. وهز كتفيه وتحول إلى سونيا قائلا:

– هل لك يا آنسة كريتشنوف أن تعزفي لي على البيانو إحدى مقطوعات جريج.! لقد سمعتك بالأمس تعزفين ولا ريب عندي في إنك خير من تعزف موسيقى جريج.!

ولكن جرمين ابتدرته بقولها: عفوا يا جاك.. ولكن ألا ترى أن الآنسة كريتشنوف منهمكة في العمل.

– إن الراحة كفيلة بأن تجدد نشاطها.! هيا يا آنسة كريتشنوف. أرجوك.!

فاحمر وجه جرمين غضبا. وقالت وهي تغالب غيظها:

– جاك.. إن لدي حديثا هاما أحب أن أكاشفك به. فابتسم الدوق وقال: آه.. وأنا أيضا لدي شيء هام كدت أنساه.! ها هو ذا.!

وأخرج من جيبه صورة فوتوغرافية وهو يقول:

– إنها آخر صورة التقطها لك وللآنسة سونيا. فقالت جرمين في غيظ: جاك.. أهذا ما تسميه شيئا هاما.!

فضحك الدوق بلا اكتراث وقال: ولم لا.؟ إنه هام كسائر السخافات التي تملأ الأرض.! انظري.. ما أجمل هذه الصورة.!

– أتراها جميلة.! إنها صورة فظيعة.! مخيفة. ما أقبح وجهي في هذه الصورة.

فابتسم الدوق وقال في صوت رقيق:

– إن وجهك لا يمكن أن يكون قبيحا حتى ولو كان لاقط الصورة حمارا جاهلا.؟ ومع ذلك فلتكن الآنسة سونيا هي الحكم.

ولكن جرمين قاطعته في جفوة: جاك..!

فقال معتذرا: آه.! حقا.! لقد كدت أنسى.! أن لديك حديثا هاما فما هو يا ترى.؟

– لقد اتصلت بي فيكتوار تليفونيا من باريس وأنبأني أن بعض الأصدقاء أهدوا إلينا محبرة ومدية للورق.

فصاح الدوق هاتفا: هذا جميل جدا.!

– وكذلك أهدوا إلينا عقدا من اللؤلؤ.!

فعاد الدوق يهتف مرة أخرى: هذا عظيم جدا.!

فقطبت جرمين جبينها وقالت: يا لك من غر ساذج.! أيكون هتافك للعقد اللؤلؤي هو نفس هتافك للمدية والمحبرة الحق أنك لا تكاد تفرق بين قيم الهدايا.

فقال الدوق يسألها: إن العقد طبعا من أصدقاء أبيك!

– طبعا.

– والمدية.؟ أليست من أحد أصدقائي.؟

– نعم. فهز رأسه وقال في نبرة ذات مغزى: وهذا ما توقعت حين رأيت اهتمامك بالعقد وتحقيرك للمدية.

فقالت جرمين وقد بدا الغضب في نبرات صوتها:

– جاك! إنك لا تكاد تكترث بي.

– وكيف هذا! إنني أراك دائما فتاة ساحرة.! فسارت إلى النافذة

غضبى دون أن تجيبه بكلمة واحدة وراح الدوق يمشي في القاعة وهو يرسل بصره من حين لآخر إلى الصور المعلقة على الجدار. ثم قال بغتة:

– عجبا.! لماذا انتزعتم صورتي من بين صور أجدادي؟ فتحولت جرمين تنظر إليه.. ورفعت سونيا بصرها إليه متسائلة فقال الدوق مسترسلا.

– نعم. فإني أذكر أن صورتي كانت معلقة هنا. مكان هذه السجادة.

فقالت جرمين: ولكننا كتبنا إليك في هذا منذ ثلاثة أعوام. أما وصلتك الصحف التي بعثنا بها إليك.؟

فهز رأسه نفيا وقال: منذ ثلاثة أعوام كنت على مقربة من القطب الجنوبي. ولم يكن البريد يصل إلي.

فقالت جرمين: لقد كتبت صحف باريس في هذا الشأن طويلا.. لقد سرقت صورتك.

– سرقت؟. ومن الذي سرقها.؟

– سترى.

ومشت جرمين إلى الجدار فأزاحت السجادة عن موضعها قليلا فانكشفت عن هذه الكلمات مخطوطة بالطباشير: أرسين لوبين

فقال الدوق في استغراب: أرسين لوبين!

فقالت سونيا: نعم... إنه السارق... ومن عادته أن يكتب إمضاء حيث ارتكب سرقته.

فعاد الدوق يقول متسائلا: ولكن من يكون أرسين لوبين هذا؟

– كيف هذا.. أهناك من يجهل هذا الاسم!

– إني أجهله لأنني أمضيت سبعة أعوام في القطب الجنوبي كما تعلمين.

فقالت جرمين في حماسة: إن أرسين لوبين هو بلا ريب أظرف وأجرأ لص في فرنسا.! إنه في خلال الأعوام القليلة الماضية دوخ رجال الشرطة السريين في العالم بأسره.

لقد هزأ بجانيمار أعظم رجال شرطة فرنسا السريين وقهر شرلوك هولمز الشرطي الإنجليزي العظيم... وكذلك غلب جوشار الشرطي الباريسي الشهير.. وهذا يا صديقي هو أرسين لوبين.. فهل علمت من يكون؟..

فقال الدوق متسائلا. عجبا.! ولكن.. أشاب هو أم كهل.؟ وهل هو.

فقاطعته جرمين بقولها: هذا مالا علم لأحد به.! إنه أبرع الناس في التنكر.. حتى ليلقبه جانيمار بذي المائة وجه.! تصور أنه تناول العشاء في السفارة الإنجليزية ليلتين متواليتين دون أن يفطن أحد إلى أمره.

فقال الدوق في استغراب. إذن فكيف عرف أنه تعشى هناك مرتين؟

– لأنهم أدركوا في الليلة الثانية أن أحد المدعوين قد اختفى بغتة.. ومعه اختفت جميع جواهر السفارة.

– جميع جواهر السفارة.؟

نعم.. وقد ترك أرسين لوبين بطاقته في مكان الحادث وعليها هذه الكلمة «هذه ليست سرقة وإنما هي تعويض عن مجموعة والاس التي استوليتم عليها أيها الإنجليز.»

فابتسم الدوق وقال: إنه لص وطني.! لقد ثأر لفرنسا من الإنجليز.!

فقالت سونيا وقد تألقت عيناها: وهو أيضا لص شريف هل تذكر حادث بنك داراي. بنك الاقتصاد للفقراء.؟ فقال الدوق: بنك داراي؟! آه.. أتعنين ذلك المالي الذي أقام منشأة تجارية لاستثمار مدخرات الفقراء.؟ كان مشروعا وهميا وكان صاحبه محتالا.. استولى على ما ادخره الفقراء بكد الجبين وخرب مئات من الأسر الفقيرة.

فقالت سونيا: تماما.. لقد سطا لوبين على بيت داراي فسرق ما في خزانته من جواهر وأموال ووزعها على أولئك الفقراء الذين سلبهم داراي أموالهم في مشروعه الاحتيالي.

فقال الدوق: إنه ليس باللص إذن.! بل هو على النقيض لص شريف.. بل محسن كبير..

فقالت جرمين في احتقار. وهل كان شريفا أو محسنا حين سرق الصور النفيسة التي يقتنيها أبي.؟

فقال الدوق في استغراب: ولكن كيف استطاع أن

يسرقها وأبوك فيما أعلم من أشد الناس حرصا.؟

– وهذا الحرص ذاته هو الذي أتاح لأرسين لوبين فرصة الاستيلاء على هذه الصور.!

– لا ريب إذن أنه كان له شركاء في المنزل عاونوه على إتمام هذه السرقة.!

– طبعا وهل تدري من كان شريكه.! إنه أبي نفسه.!

فقال الدوق في دهش: أبوك؟! وكيف هذا.؟ قصى على ما حدث.!

– لقد تلقى أبي رسالة في أحد الأيام. ولكن. انتظر. ثم التفتت إلى سونيا قائلة: سونيا. هاتي رسالة لوبين من درج المكتبة وأتت سونيا بالرسالة فقدمتها إلى الدوق فنظر إلى غلافها وقال:

– إن خطها غريب.! وله طابع خاص.

وفض الرسالة وراح يتلوها في صوت مرتفع.

«سيدي العزيز»

«معذرة إذا كتبت إليك على غير سابق معرفة ولكنني موقن من

إنك تعرفني بالاسم على الأقل.

إن لديك صورة رائعة من ريشة جونسبرج موضوعة في قاعة الاستقبال المجاورة للبهو في قصرك. ولهذه الصورة في نفسي مكانة عظيمة وفي نفس القاعة صور خالدة لجوياولكان نايك. وفي البهو- أعني على جدرانه- سجاجيد أثرية مرسومة عليها صور فنية غاية في الإبداع والروعة أما ذلك التاج الذي ابتعته في المزاد الذي أقيم في قصر المركيز فيروناي. فهو بلا ريب خليق بأشد الإعجاب.

وقد كان من قبل من مقتنيات الأمير دي لا مبال.

«هذا التاج يفتنني جدا لأن تاريخه يتصل اتصالا وثيقا بمأساة أليمة.. فضلا عن أنه مرصع بجواهر تبلغ قيمتها نصف مليون فرنك على أقل تقدير.

«فأرجوك يا سيدي أن تحزم هذه التحف وتبعث بها طردا باسمي إلى محطة بانينيول. فأكون ممتنا لك أشد الامتنان أما إن أبيت أن تقدمها هدية إلي فسأزور القصر في مساء الخميس الموافق ٧ أغسطس وأنتزعها بيدي.

«وأخـيرا أرجـوك أن تصفح عني إذا كانت رسالتي هذه قد أزعجتك. وثق أنني لك دائما المخلص.

أرسين لوبين

«حاشية: إذا كانت الصور غير مغطاة بالزجاج كما أذكر فأرجوك قبل إهدائها إلي أن تأمر بتركيب الزجاج للإطارات وقاية لها من التلف.

وإذا فرغ الدوق من قراءة هذا الخطاب راح يقهقه ضاحكا. وقال:

– الحق إنه لص ظريف! لا شك أن هذه الرسالة أضحكت أباك طويلا!

– أضحكته.! إنه يعرف يا عزيزي أن أرسين لوبين ليس بالرجل الذي يمزح أو يهزل.!

– كيف.؟ أتعنين أنه أهداه هذه التحف النادرة.؟

– كلا بالطبع.. ولكن هذا الإنذار ملأ نفسه غضبا وقلقا.. وكان يعلم أن لوبين داهية لا يشق له غبار وأنه دوخ رجال الشرطة في أنحاء العالم ولذلك رأى أن يضع بنفسه خطة يحيط بها ما ينويه هذا اللص الجريء. فما كان منه إلا أن ذهب من فوره إلى صديق له من ضباط الجيش وروى له ما حدث. فبث الضابط الاطمئنان في نفسه. ووعده بأن يبعث إليه بسبعة من جنوده يخفرون القصر في الليلة المعهودة التي حددها لوبين للسطو. وفعلا جاء الجنود وعلى رأسهم أحد الصولات. ولبثوا يحرسون القاعة التي فيها التحف حتى الصباح.

فقال الدوق: وبالطبع عجز أرسين لوبين عن تنفيذ وعيده.؟

– كلا.. بل سرق الصور والسجاجيد والساعة الأثرية وغيرها.؟

– وتاج الأمير دي لامبال.؟ هل ظفر به أيضا.؟

– كلا.. لأنه كان مودعا في بنك فرنسا. ولعله سرق صورتك على سبيل التعويض لأنه لم يذكر في رسالته أنه سيسرق هذه الصورة.

– ولكن كيف يمكن أن تقع السرقة وهؤلاء الجند يخفرون القاعة؟. أتراه قد قتلهم.؟

كلا. لم يقتلهم.! إنه ما كان في حاجة إلى شيء من هذا. فقد كان الصول هو نفسه أرسين لوبين. أما الجنود السبعة فما كانوا إلا أعوانه متنكرين.

فصاح الدوق في دهش: هذا عجيب.! إذن فقد كان ضابط الجيش صديق أبيك من أعوان لوبين أيضا.

– كلا... ولكن التحقيق أثبت أن الجنود غشوا إحدى الحانات وهم في طريقهم إلى القصر ليتناولوا شيئا من الخمر.. فدعاهم أحد الحاضرين إلى مائدته وقدم إليهم الخمر على حسابه.. ثم دعاهم إلى ركوب سيارته لينقلهم إلى القصر... ولا ريب أنه دس مخدرا في الخمر. لأن الأهالي عثروا على الجنود وهم مكممون موثقون وقد نزعت عنهم ثيابهم العسكرية.! وهكذا ارتدى لوبين ورجاله هذه الثياب وحضروا إلى القصر منتحلين صفة الجنود الذين أوفدهم الضابط لحراسة التحف.

فابتسم الدوق وقال: الحق إنه بطل عظيم.

– وقد دعا أبي الشرطي الباريسي الشهير جوشار ليحقق الحادث لعلمه بأن بينه وبين لوبين عداوة قديمة

مستحكمة.. ولكن جوشار أخفق في مهمته.

وساد الصمت برهة.. ثم قالت جرمين فجأة:

إني لا أستبعد أن يكون لوبين الآن على مقربة من القصر.

وقال الدوق في استغراب: ماذا تقولين؟

– لقد حدثت اليوم بعض حوادث حربية أثارت شبهاتي انظر أترى هذا التمثال الفضي.؟ لقد نقل من موضعه دون أن يلمسه أحد منا. وهذا اللوح الزجاجي مكسور أو منزوع من مكانه.. ومن الغريب أنه يقع فوق المزلاج مباشرة كأن أحدا نزعه لينفذ يده من الفجوة ويحرك المزلاج.! ألا يسبب هذا الريب والشكوك.؟

الفصل الرابع

اقترب الدوق دي شارميراس من النافذة وراح يفحصها ثم قال: إن الأمر فيما أرى خطير. ! هنا اللوح لم يكسر. . وإنما انتزع من موضعه انتزاعا. ينبغي إذن أن نبلغ أباك ما حدث حتى يصون تحفه ونفائسه.

فقالت جرمين: أرأيت إذن أني كنت على حق حين قلت إن أرسلين لوبين قريب من هذا لقصر.؟

فقال الدوق باسما: وهل أرسين لوبين هو اللص الوحيد الموجود في فرنسا.؟ قد يكون هناك لص آخر ينوي أن يسطو على القصر.

وفتح الباب في هذه اللحظة ودخل حارس الصيد يقول:

- بالباب زائران يطلبان مقابلتك يا سيدتي.

- هل عهدوا إليك بحراسة الباب يا فيرمان.؟

– نعم يا سيدتي. فقد ذهب الخدم جميعا إلى المحطة ولم يبق هنا أحد غيري وزوجتي.

– ومن هذان الزائران.؟

– إني آسف يا سيدتي.. إنك تعلمين أن ذاكرتي ضعيفة لا تعي الأسماء.

فابتسم الدوق وقال متهكما: هذه والله قرية كبيرة ينبغي أن يتصف بها كل من يعهد إليه بمقابلة الزائرين فقال جرمين: لا أظنهما كارولیه وابنه. لقد أنبأتهما أن أبي لا يعود إلا بعد ساعة على الأقل. أدخلهما يا فيرمان.

وقال الدوق: كارولیه.. إني ما سمعت من قبل بهذا الاسم.

– منذ برهة قصيرة طلب رجلان مقابلتي فإذا بهما ريفيان لهما هيئة مضحكة و... غير أنها بترت جملتها إذ فتح الباب.

وكان الداخل هو كارولیه الأب. وكان في رفقته شاب آخر خلاف ابنه الذي رافقه في المرة الأولى.

وقال الأب. هذا هو ابني الثاني. وهو يشتغل في إحدى الصيدليات.

فقالت جرمين في جفاء: يؤسفني أن أبي لم يحضر بعد.

فقال كارولیه باسما: لا حاجة بك إلى الاعتذار يا سيدتي وجذب مقعدا وجلس دون أن ينتظر منها دعوة إلى الجلوس. وحذا ابنه

حذوه.. فقالت جرمين:

- إني أخشى أن تطول غيبة أبي. ولا أحب أن تضيعوا وقتكم في انتظاره.

فهز كارولیه رأسه متجاهلا إشارتها إلى انصرافه وقال:

- ليس لدي ما يشغلني مطلقا. ولا أحب إلى من انتظاره.

ثم التفت إلى الدوق وقال: هل تعلم يا سيدي ما هو أقل مبلغ يرضي مسيو مارتان ثمنا لسيارته.؟

فقال الدوق مجيبا: الحق أني لا أعلم شيئا عن هذا الموضوع.

وفتح الباب في هذه اللحظة ودخل القاعة شاب آخر. فلما رآه مسيو كارولیه قال:

- برنارد.. لماذا جئت.! أما سألتك أن تبقى في الحديقة؟.

فقال برنارد مجيبا. لقد جئت لأتفرج على السيارة ونظر مسيو كارولیه إلى جرمين وقال:

- هذا هو ابني الثالث يا سيدتي. وهو يدرس الحقوق.

فقالت جرمين في صوت خافت: ترى هل لك أبناء آخرون.؟

وقبل أن يلقي إليها بجوابه دخل فيرمان وأخطر الحاضرين بأن سيده قد رجع من الخارج. فقالت جرمين:

– حمدا لله.! والآن تفضلوا معي أيها السادة لأقدمكم إلى أبي.

وسارت إلى الباب وتبعها كارولیه واثنان من أبنائه أما برنارد فتباطأ عنهم قليلا ومضى يتأمل ما في القاعة من صور وتحف. ثم اقترب من أحد الدواليب. وفي حركة سريعة مد يده واختطف شيئين كانا فوقه ودسهما في جيبه خلسة.

ورآه الدوق فهب واقفا وجرى في أثره وأخذ بذراعه ثم أوصد باب القاعة وقال له في صوت خافت:

– لم يكن يليق بك يا صديقي أن تفعل هذا.

فقال الشاب متظاهرا بعدم الفهم: أفعل ماذا.؟

فابتسم الدوق وقال: لقد رأيتك تأخذ علبة سجائر فضية من فوق دولاب الكتب.

فقال الشاب متحديا: إنني لم آخذ شيئا.

فما كان من الدوق إلا أن دس يده في جيب الفتى وأخرج علبة فضية للسجائر. فامتقع وجه المسكين وقال: إنها.. إنها غلطة يا سيدي.

فمد الدوق يده في الجيب الثاني وأخرج العلبة الجلدية التي تحتوي على العقد اللؤلؤى الذي أهداه إلى جرمين وقال باسما:

- وهذه فيما أظن غلطة أخرى.؟

فصاحت سونيا في قلق: يا إلهي.! العقد اللؤلؤي!

وقال الشاب متوسلا: سيدي... أتوسل إليك أن تصفح عني.! سألتك بالله أن تكتم الأمر عن أبي.

واغرورقت عيناه بالعبرات. فقال الدوق: إنك لص.!

- رحمة بي.! أقسم أنني لن أرتكب هذا العمل مرة أخرى.

وتخلى الدوق عن ذراع الشاب وهو يقول:

- حسنا سأخلي سبيلك على أن تكون هذه هي المرة الأخيرة.! هيا أغرب من أمامي.

وانطلق الشاب مسرعا وهو يقول: شكرا.! شكرا.!

وأوصد الدوق باب القاعة مرة أخرى ثم قال يخاطب لا ريب عندي في أن هذا الشاب سيزج في السجن يوما ما لجسارته.! أيسرق على مرأى منا.! كان ينبغي أن أرسله إلى السجن.!

فقالت سونيا: لقد أحسنت صنعا بالعفو عنه. ووضع علبة العقد فوق الدولاب واقترب من سونيا وهو يقول:

- ولكن ما بك.؟ إني أراك بادية الشحوب.؟

– لقد هز الحادث أعماق نفسي هزا عنيفا.! يا له من مسكين.!

واغرورقت عيناها بالعبارات.

– أتشفقين عليه إذن.؟

– إنه جدير بالشفقة.! كانت نظراته حزينة. ووجهه ناطقا بالهلع.

فقال الدوق في صوت رقيق: يا لك من فتاه رقيقة الإحساس.!

فقالت سونيا: قد تكون رقة الإحساس ضربا من السخافة والحمق. ولكن ما كان يسعني أن أتجاهل عينيه المتوسلتين.! وأنت بنفسك شفقت عليه.! نعم. إنني أعلم أن لك قلبا رقيقا رحيما. في الصميم.

فقال الدوق متسائلا ولم في الصميم.؟

– لأنك تحاول دائما أن تتظاهر بقلة الاكتراث وبلادة الإحساس والرغبة في التهكم. ولكني أعلم أن هذا كله ليس إلا قناعا كاذبا يعمد إلى الاختفاء وراءه أولئك الذين تعذبوا وقاسوا كثيرا.

وأعقبت هذا سكتة قصيرة. وتأملها الدوق مليا.. ثم قال في صوت غريب النبرات:

– سونيا.! إنك لست سعيدة هنا.

فقالت على عجل. أنا.؟ ولماذا.؟

– إن في ابتسامتك حزنا وفي نظراتك ألما وشقاء أأنت وحيدة في هذا العالم.؟

وكان صوته نابضا بالإشفاق ونظراته فياضة بالحنان:

واحمر وجه الفتاة وأجابت: نعم.. إنني وحيدة في هذا العالم.

– ليس لك أهل أو أصدقاء.؟

– كلا..

– لا أعني هنا في فرنسا. وإنما أعني في بلادك.. في روسيا.

وبدت على شفتيها ابتسامة حزن وقالت:

– ليس لي أهل أو أصدقاء حتى في وطني.! ومع ذلك فإنني لا أكاد أكترث لهذا.. غير أني في بعض الأحيان...

وأمسكت بغتة ونظرت إليه متفرسة وقالت:

أخشى أن تهزأ بي..؟

فهز رأسه وقال: محال.! إني أحترم القلوب الحساسة.

– في بعض الأحيان أتمنى أن تصلني رسالة ما... من صديق أو من شخص يعطف علي... وأجدني على رغمي أبكي حين أذكر أنني وحيدة في هذه الدنيا.

وكانت سكتة أخرى. ثم هزت الفتاة كتفيها بلا احتفال وقالت:

– ومع ذلك فإنني لا أنفك أسفه هذه المشاعر كلما طلقت بنفسي وأنعتها بالسخافة.. وأنا أرجو أن أجد في هذا بعض العزاء.

وفتح باب القاعة في هذه اللحظة في حركة عنيفة ودخلت جرمين وهي بادية الغضب وصاحت بسونيا في حدة:

– سونيا.! إنك أصبحت لا تحتملين.! ألم أنبه عليك بأن تودعي حقيبتي الخطابات التي في درج مكتبي ولكنك نسيت أن تفعلي هذا.!

فقالت سونيا معتذرة: إنني آسفة.! كنت أنوي أن ولكن جرمين قاطعتها في جفوة: وما فائدة هذا الاعتذار.! أتحسبين نفسك ضيفة علينا فلا تؤدي عملا في هذه الدار.! لقد أصبحت شديدة الإهمال.. وإهمالك لا يطاق؟.

فقال الدوق محاولا تسكين غضبها: إن السهو مغتفر يا جرمين..

ولكنها صاحت به ثائرة: جاك.! ليس من حقك أن تتداخل في شؤون الدار. إنك فعلت هذا بالأمس. فهل تريد أن تحرم علي توجيه اللوم إلى خدمي.!

فقال الدوق في عتاب: جرمين.!

وتحولت جرمين إلى سونيا وصاحت بها: اذهبي بهذه الرسائل والأدوات إلى غرفتي.! أسرعي.!

ثم غادرت الغرفة بعد أن صفقت الباب خلفها في عنف.

وهمت سونيا بأن تجمع الرسائل التي نثرتها جرمين على الأرض وهي في فورة غضبها. ولكن الدوق ابتدرها بقوله:

- دعيني أجمعها بدلا عنك.!

وجمع الرسائل ووضعها على المكتب ثم قال: لا تغضبك ثورة جرمين.! إنها طيبة القلب وعيبها الوحيد سرعة انفعالها.! لقد أفرط أبوها في تدليلها فاعتادت أن ترى كل رغباتها ملباة.!

- كلا... إنني لست متكدرة.!

- يسرني أن أسمع منك هذا.!

وتفرس فيها الدوق برهة ثم مال فوق يدها يقبلها في احترام.

وتضرج وجه سونيا احمرارا... وراحت تحملق في وجه الدوق. ثم انطلقت تجري صوب الباب. وإذ بلغته استدارت وألقت على الدوق نظرة خاطفة. ثم غادرت القاعة.

الفصل الخامس

لبث الدوق دي شارميراس برهة في القاعة يرقب بعينين شاردتين الباب الذي مرقت منه سونيا . ثم تنهد وهبط إلى الحديقة . ورأى مسيو جورناي مارتان يتحدث إلى مسيو كارولية وهو يقول :

– كلا يا سيدي. هذا أقل ثمن أبيع به سيارتي.

فقال مسيو كارولية واليأس باد في صوته: ولكنه ثمن باهظ يا سيدي.!

– باهظ.! كيف هذا.! إنك لن تجد مجنونا يبيعك سيارة قوتها مائة حصان بألف جنيه.؟

– إنني أعتقد يا سيدي إنني مغبون في هذه الصفقة.

فقال المليونير: بل أنا المغبون يا سيدي.؟ سيارة جديدة فاخرة تباع بألف جنيه وقد كان ثمنها ألف وخمسمائة منذ شهور.!

- ولكن.!

- آوه. كفى يا سيدي، حسبك جدلا الآن.! ينبغي أن تجربها أولا.

- ولكن ألف جنيه مبلغ جسيم.

- جسيم.! ألا ما أشد عنادك يا سيد.! جربها أولا! ونادى مسيو مارتان سائق سيارته وقال له: جان.؟ دع هؤلاء السادة يجربوا السيارة.

ثم التفت إلى مسيو كارولیه وقال: إنك يا سيدي من أبرع رجال الأعمال الذين قابلتهم في حياتي.. لقد غلبتني على أمري وإلا لما بعتك هذه السيارة بألف جنيه.!

ومضى كارولیه وأولاده الثلاثة إلى الجراج في رفقة سائق السيارة.. وقال المليونير مخاطبا الدوق: لقد خدعته.. وأوقعته في الفخ.!

فابتسم الدوق وقال: إنك رجل أعمال لا نظير له.

فقال المليونير في زهو وفخار: إن السيارة قديمة ولا تساوي إلا بضع مئات. ولكني سأبيعها إليه بألف جنيه. ثم صعدا الدرج الرخامي ودخلا البهو. وجلس مسيو مارتان على مقعد أثري من الطراز الإمبراطوري وقال:

- كيف نسيت يا عزيزي الدوق أن تسألني عن نتيجة مقابلتي

للوزير اليوم.؟ ألا تعلم إنني تناولت معه طعام الغداء.؟

قال الدوق في غير اهتمام. ألديك أنباء هامة.؟

– طبعا.. غدا سيصدر قرار بالإنعام عليك بوسام اللجيون دونور.! فينبغي أن تكون مسرورا.

فقال الدوق بلا احتفال: طبعا.. هذا بديع.

فقال مسيو مارتان: أما أنا فإنني سعيد. سعيد جدا. والآن ينبغي يا صديقي أن تطمح إلى ما هو أعظم من هذا الوسام.! ينبغي أن تلتحق بالأكاديمية.

فقال الدوق في استغراب. الأكاديمية.. ولكن ما هو اللقب العلمي الذي يجيز لي هذا الانضمام إلى الأكاديمية.

– لقب الدوقية...! ألا تعلم أن هذا اللقب خليق بأن يفتح أمامك جميع الأبواب..!

– ولكنني غير أن المليونير قاطعه بقوله: إنني أريد يا عزيزي الدوق أن أزوج ابنتي رجل كفاح من رجال الأعمال.. أريد أن يكون صهري حائزا على وسام اللجيون دونير وعضوا في الأكاديمية.

وإذ رأى صهره يضحك قال يسأله: ما الذي يضحكك؟

– لا شيء..؟ لا شيء..؟ ولكن صدقني إنك رجل مدهش.

– طبعا. إنني رجل مدهش..! إنني رجل أحب العمل وأحب الآداب والفنون..! إنني كما ترى شديد الولع باقتناء التحف واللوحات الفنية والأثاثات الأثرية..

وفي وسعي أن أفخر بأن لدى متحفا يضم أبدع ما أخرجته أيدي المصورين.

– هذا أمر اتفق عليه الجميع.

فابتسم المليونير وقال: ومع ذلك فإنك لم تر إبداع تحفي.. أعني تاج الأمير دي لامبال... إن ثمنه لا يقل عن نصف مليون فرنك.

– لا غرابة إذن في أن يعلل أرسين لوبين نفسه بسرقة هذا التاج.

فصاح مسيو مارتان، ثق ثق ثق فصاح مسيو مارتان: بالله عليك لا تذكرني بهذا الشيطان.!

– لقد أرتني جرمين الخطاب الذي أرسله إليك.. ولا أكتمك أنه خطاب ظريف...!

ظريف.! إنه شيطان رجيم.! لقد كنت أصاب بصدمة عصبية بسبب هذا الخطاب المشؤوم.؟ نعم. عندما جاءني هذا الخطاب كنت جالسا في هذا البهو نفسه... لقد فتح الباب ودخل علي فيرمان يحمل خطابا وقيل إن...

ولكنه أمسك عن متابعة الحديث. ففي هذه اللحظة نفسها فتح الباب ودخل فيرمان يحمل خطابا وقدمه إلى سيده.

فقال مسيو مارتان مسترسلا في الحديث وهو يقلب الخطاب بين يديه.

– نعم.. كنت جالسا في هذا البهو حين دخل علي فيرمان يحمل إلي خطابا كتب عليه اسمي بخط غريب... خط...

ولكنه أمسك عن متابعة الحديث. ففي هذه اللحظة نفسها الذي قدمه إليه فيرمان منذ لحظات. وهتف بقول في إزعاج: يا إلهي.!

فقال الدوق: ماذا جرى.؟

فصاح مسيو مارتان في انفعال. الخط.! الخط!؟ هذا الخطاب؟! إنه مكتوب بنفس الخط!

وتهاوى جالسا في إعياء فوق المقعد الأثري الإمبراطوري وسمعت فرقعة عالية. ثم تداعت قوائم المقعد العتيق وإذا بالمليونير قد سقط على الأرض وقد تعالت قدماه في الهواء.

وأسرع إليه الدوق يساعده على النهوض وهو لا يستطيع أن يغالب ضحكاته. إذ كانت هيئة مسيو مارتان مثيرة للضحك.

وقال الدوق: ماذا تعني بقولك إن هذا الخطاب مكتوب بنفس الخط؟

– نعم. نفس الخط.! ومن رأى هذا الخط مرة استحال عليه أن ينساه.

وفض الغلاف وراح يقرأ الرسالة في صوت مرتفع: «سيدي العزيز»

«منذ ثلاثة أعوام ابتدأت أجمع مجموعة من الصور النادرة وقد ضممت إليها بعض صورك... ولكن هذه المجموعة ما تزال حتى الآن ضئيلة الشأن. ولما كنت أعلم أن لديك في قصرك في باريس صورا رائعة يسرني أن أستولي عليها. فقد عولت على أن أزور قصرك في باريس في صباح اليوم التالي لآخذ هذه الصور.

فقال الدوق في هدوء: لا ريب أنه يمزح.

فقال المليونير. انتظر. فإن بالخطاب حاشية وقرأها قائلا:

«حاشية! بما أنك أبقيت تاج الأمير دي لامبال لديك ثلاثة أعوام، فقد عولت على أن أنتهز هذه الفرصة أيضا لآخذ هذا التاج– أ. ل.))

وصاح المليونير في غضب: يا للشيطان.؟ يا للمجرم؟ أو.! إنني أختنق، إنني أختنق.!

وأسرع يفك ياقته وقد تهالك في مقعده ممتقع اللون.

فصاح الدوق ينادي. فيرمان؟! إلي بقدح من الماء. إن سيدك مريض.

وحل رباط عنق المليونير.. وتناول إحدى المراوح الأثرية المعلقة على الجدار وجعل يروح بها على وجه مسيو مارتان.

وصاح المليونير وقد استرد روعه قليلا:

– أبلغ إدارة الأمن العام.! أخطر رجال الشرطة.؟ وأقبلت سونيا وجرمين مسرعتين إذ سمعتا نداء الدوق فقال هذا:

– اسرعي يا جرمين... إلي بالأملاح المنعشة.

وجاءت سونيا بزجاجة الأملاح المنعشة فتنشق منها المليونير وقالت جرمين في جزع:

– ولكن ماذا جرى.؟

فأجابها الدوق: لقد جاء خطاب من أرسين لوبين.

– أما أنبأتك أنه لابد أن يكون على مقربة من القصر.

وصاح مسيو مارتان: فيرمان... من الذي جاء بهذا الخطاب.! – لقد وجدته زوجتي في صندوق البريد عند الباب.

– يا للنكبة.! يا للكارثة.!

فقال الدوق. تجلد يا سيدي. إنني أعتقد أن المسألة ليست إلا مزاحا.!

- ليست إلا مزاحا.! وهل كانت مزاحا منذ ثلاثة أعوام؟.

فنظر الدوق في الخطاب وقال. إنه مؤرخ بتاريخ اليوم... ولوبين ينذرك بالاستيلاء على صورك غدا. فإن كان الأمر جدا فلدينا إذن متسع من الوقت للحيلولة دون وقوع هذه السرقة. فلنتصل تليفونيا بباريس على الفور.

فقالت سونيا: اليوم الأحد. والتليفون الخارجي لا يعمل يوم الأحد في مثل هذه الساعة.

فامتقع وجه المليونير وصاح: هذا صحيح.؟ إذن فما العمل.؟

فقالت جرمين، فلنبعث ببرقية.

فقالت سونيا: وهذا أيضا مستحيل فمكاتب التلغراف توصيد أبوابها عند الظهر.

فصاح المليونير في غضب: يا لها من حكومة. يا لها مت حكومة.! ما الذي يدعوها إلى إيقاف أعمال الخدمة العامة في أيام الآحاد.!

وراح يجفف جبينه الذي تصبب عرقا. وقال الدوق:

- ولكن ينبغي أن نجد مخرجا من هذه الورطة على أية حال.

- وما هو هذا المخرج. ما هو هذا المخرج.؟

وساد السكوت. ثم صاح الدوق دي شارميراس:

- لقد وجدت حلا.!

- حقا.! وما هو.؟ تكلم.! تكلم.!

فأخرج الدوق ساعته ونظر فيها وهو يقول: كم الساعة الآن؟

وأخرج المليونير ساعته أيضا. وحذت جرمين حذوه.

ولم يشأ فيرمان أن يكون دونهما إدراكا لخطورة الموقف. فأخرج ساعته بدوره ونظر فيها وثارت مناقشة حادة بين الثلاثة. وكل منهم يحاول أن يؤكد أن ساعته هي الدقيقة المضبوطة دون الآخرين.

وأخيرا تدخل الدوق بينهم قائلا: كفى فمهما يكن من خلاف بينكم. فمما لا نزاع فيه أن الساعة الآن قد تجاوزت السابعة ببضع دقائق. فلو إني سافرت الآن إلى باريس لبلغتها فيما بين الساعة الثانية والثالثة بعد منتصف الليل فأبلغ البوليس بالمرة ونقبض على اللصوص متلبسين.

فصاح المليونير وقد سرى عنه: هذا بديع. الحق إنك رجل أعمال يا صديقي. وسأرافقك إلى باريس.؟ لا يطاوعني قلبي على أن أظل هنا وتحفي النفيسة مستهدفة للضياع. ولكن ما عسانا نفعل بجرمين وسونيا.؟ أندعهما هنا ومن المحتمل جدا أن يقتحم الشيطان هذا القصر أيضا... كلا... فلنذهب جميعا إذن إلى باريس. ولا ريب أن

السيارتين تتسعان لنا جميعا.

فقالت جرمين في امتعاض: ولكننا سنبلغ باريس قبل وصول الخدم فكيف يكون حالنا والخدم غائبون؟

فصاح أبوها في غيظ: إن تحفى أنفس من هذه الصغائر كلها.! سونيا.! هات من درج الدولاب حلقة مفاتيح قصري في باريس.! أسرعي.! وحذار أن تنساها هنا. سأتولى أنا بنفسي قيادة إحدى السيارتين وسيقود الدوق السيارة الأخرى. أما جاك فسيبقى هنا مع فيرمان لحراسة القصر.! هيا.! أسرعوا..!

لم يكد القوم يغادرون البهو ويوصدون الباب خلفهم حتى يبدو في الشرفة مسيو كارولیه. وهو ذلك الريفي الذي جاء يبتاع سيارة مسيو مارتان. وكان يمشي في حذر وهو ينظر هنا وهناك كأنما لا يريد أن يراه أحد.

ثم صفر في صوت خافت فظهر على الأثر أولاده الثلاثة ومعهم جان سائق السيارة. وقال مسيو كارولیه يخاطبهم:

– وزعوا أنفسكم على الأبواب... إنهم ينوون أن يسافروا باريس فيجب أن نعجل وإلا استقلوا السيارتين فقال جان متذمرا. لولا ولعه بأن يخطر الناس بما ينوي أن يفعل لما وقعنا في هذه الورطة؟ أكان من الضروري أن يبلغهم أنه سيسرق قصر باريس صباح الغد؟.

فقال مسيو كارولیه: وأي ضرر يمكن أن ينجم عن هذا الإنذار أيها الغبي.؟ إن مكاتب التليفون والتلغراف مغلقة اليوم فمن المستحيل أن يتمكنوا من الاتصال بباريس...

وغدا سنظفر بالتاج. فقد فتشت هذا القصر تفتيشا دقيقا ولا ريب عندي في أنه في قصر باريس.

وقام بعض الرجال عند الأبواب يرقبون. أما الآخرون فمضوا يفتشون الأدراج... وقال مسيو كارولیه:

– ترى أي دولاب هو المقصود بين هذه الدواليب.؟

ولكن ينبغي مهما يكن أن نبحث عنها بعناية.

فقال برنارد: لقد وصف الدولاب بأنه مطعم بالنحاس.

فصاح كارولیه: ولم لم تقل هذا من قبل أيها الأبله. وسار إلى دولاب مطعم بالنحاس وعالج درجه بما لديه من أدوات فانفتح وهمس جان:

– أسرعوا.! لقد رجع مسيو مارتان.

واختطف كارولیه من الدرج حلقة من المفاتيح. وأخرج من جيبه حلقة أخرى وضعها مكان تلك التي أخذها. وصاح برفاقه:

– هيا بنا... أسرعوا.!

فانطلقوا جميعا إلى الحديقة من خلال الشرفة مسرعين وفي هذه اللحظة فتح الباب ودخل مسيو جورناي مرتان... وفي دخوله لمح رأس مسيو كارولیه وهو يهبط درج الشرفة. فصرخ ينادي.

– لص.! النجدة فيرمان.!

روكض إلى الشرفة. وفي طريقه إليها عثر ببقايا الكرسي الأثري المحطم فسقط أرضا. وتحامل على نفسه وجلس على الأرض. ثم لم يستطع أت يغالب انفعاله فبدأ يبكي كالأطفال.

ولما هدأن ثائرته قليلا قليلا صاح ينادي مرة أخرى:

– فيرمان.! فيرمان.! شارميراس.؟

وسار إلى النافذة وراح يردد نداءه. وفتح الباب ودخل الدوق وهو يقول في صوت هادئ:

– أكنت تنادي.!

– أناديك.! لقد بح صوتي لكثرة النداء.! لقد اقتحم اللصوص هذا البهو... ولمحت أحدهم وهو يهرب من الشرفة.

فابتسم الدوق وقال: أوه... هل تسلط عليك الوهم.؟

– الوهم. أؤكد لك أنني رأيت اللص كما أراك الآن.!

فقال الدوق باسما. وأنا أؤكد لك أنك الآن لا تستطيع أن تراني مادام هذا البهو الفسيح مضاء بمصباحين فقط.

– آه. هذه غلطة ذلك الأحمق فيرمان.! في مثل هذه الليلة لا يضيء إلا مصباحين.! كان ينبغي أن يضيء ستة مصابيح على الأقل.

وقال الدوق: يحسن بنا أن نوصد النوافذ قبل رحيلنا ويجب أن نعهد إلى فيرمان بحراسة هذا البهو ونسلحه ببندقية محشوة.! فإنه إذا استطاع أن يصيب أحد اللصوص برصاص بندقيته فر الآخرون هاربين.! الحق أن قلبي لا يطاوعني على أن أتركك في هذا القصر مع جرمين وسونيا لا يقوم بحراستكم إلا هذا الأبله فيرمان.

فقال المليونير: ومن أنبأك بأننا سنبقى.! لقد كان فيرمان جنديا وقد اشترك في حرب السبعين. وفي وسعه أن يخفر هذا القصر... إنه شجاع لا يهاب اللصوص.

وفتح باب القاعة ودخلت جرمين وفي أثرها سونيا والخادمة إيرما وقد ارتدين معاطف السفر. وقالت جرمين:

– إنه لمزعج يا أبتاه أن تضطرنا إلى السفر إلى باريس بهذا الشكل في جوف الليل.

فقال مسيو مارتان. أبقي في هذا القصر إن شئت. ولكن اعلمي أنني

رأيت في هذا البهو لصا منذ لحظات وقد هرب من الشرفة حين رآني.

فقال الدوق في صوت جدي: نعم... لقد رأى أبوك لصا. وكان أسود الوجه وله عينان يتطاير منهما الشرر.

فقالت جرمين: أسود الوجه وله عينان يتطاير... أواه؟ جاك.! ألا تنوي أن تقلع عن هذه الدعابات.

– ولكنني لا أمزح.! إن هذا الضوء الخافت هو الذي جعل أباك يرى لص وجهه أسود...! ولو أن الضوء كان أشد من هذا لرآه أحمر الوجه مثلا.

فقال مسيو مارتان في لهجة عتاب: يا عزيزي الدوق... إن هذا الهزر لا يليق بمن سيجلى صدره وسام اللجيون دونير. ومن سيصبح عاجلا عضوا في المجمع العلمي...

إنني أؤكد أنني رأيت لصا في هذا البهو...!

فقال الدوق متهكما: وهل تراني أنكرت عليك ما رأيت..! لقد كنت منذ لحظات أصف لجرمين وجه هذا اللص.

فصاحت الفتاة: كفى مزاحا. إنه مزاح سخيف.! وقال أبوها. ليس هذا أوان المزاح على أية حال.!

تحفي النادرة وتاج الأمير دي لامبال في خطر وأنت تمزح يا عزيزي الدوق...! هذا كثير...!

فنظر الدوق إلى سونيا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال:

– إذن ينبغي أن أعترف بذنبيّ.. نعم... إنني مخطئ.

وصاح مسيو مارتان: سونيا.. أين المفاتيح.؟

وسارت الفتاة إلى الـدولاب ولكنها حين رأت القفل مهشما صاحت: رباه... إن القفل محطم.

فصاح المليونير في لهجة تدل على الانتصار... أصدقت الآن يا عزيزي الدوق إنني رأيت لصا في البهو.! لا ريب أنه كان يسعى إلى سرقة المفاتيح.

وفتحت سونيا الدرج وهتفت: ولكن المفاتيح موجودة وغاب عنها أن اللصوص أبدلوا بالمفاتيح سواها. وقال المليونير. لو أني لم أباغتهم في الوقت المناسب لظفروا بالمفاتيح.!

أرأيت يا عزيزي الدوق أنني لم أكن واهما أو مخدوعا؟

فقال الدوق باسما: إنني الآن أسحب ما قلت.! «وأشهد شهادة الحق بأنك رأيت لصا في هذا البهو. ولكني ما زلت مصرا على أنه كان

أسود الوجه يتطاير الشرر من عينيه.! من فضلك أعطيني المفاتيح يا آنسة سونيا ما دمت سأبلغ باريس قبلكم.

وعندما تناول منها المفاتيح ضغط يدها في رفق فتضرج وجهها احمرارا ولم يفطن أحد إلى ما حدث إذ كان الضوء خافتا.

وغادر المليونير القاعة ليرتدي معطفه... وبغتة بدأت السماء تمطر فقالت جرمين ساخطة:

- كأنما لا تكفينا متاعبنا حتى تمطر السماء.!

أما الدوق فأشعل سيجارة وراح يدخن. ثم رمى بالسيجارة فجأة وصاح في مزاح:

- رباه.؟ كيف لم يخطر لي هذا من قبل. كيف نصبر على البقاء في هذا البهو المظلم.!

وراح يشعل عشرات المصابيح الأثرية الموجودة بالقاعة وجعلت جرمين تنظر إليه في استغراب وامتعاض. أما سونيا فكانت تنظر إليه باسمة. وقد سرتها منه هذه الروح المرحة الطروب.

وأخيرا جاء مسيو مارتان رأى جميع المصابيح مضاءة صاح:

- ما هذا.! البترول.! البترول.! يا عزيزي الدوق أم لعلك تريد

مني أن أنفق كل ثروتي في شراء البترول؟

فقال الدوق دون أن يحفل بالإجابة: ما أشد كسل جان.! لقد أبطأ في إعداد السيارتين. هيا بنا إليه.

وتأبط ذراع المليونير وغادر القاعة. فلما صار عند الباب الخارجي قال الـدوق. والآن هيا أزعق وناد جان. فقال مسيو مارتان في استغراب: ولم لا تناديه أنت؟

فضحك الدوق وأجاب: لأن لك حنجرة قوية لا نظير لها وقد فتنني صوتك حين رأيت اللص وزعقت تدعوني أنا وفيرمان... هيا أزعق..! أزعق.!

وأخذ المليونير يزعق مناديا سائق سيارته جان.

الفصل السابع

كان صوت المليونير يبدو وهو ينادي جان وفيرمان. ولكن أحدا لم يبادر إلى تلبية ندائه. فقال الدوق في دهش.

– هذا عجيب.! أين ذهب هذان الأحمقان.! فلنذهب إليهما إذن.

– فقال مسيو مارتان في تردد أنذهب إليهما في هذه الظلمة. السائدة والقصر مكتظ باللصوص.

– وهبنا لم نذهب.. فهل لديك من توفده مكاننا. ولا تنس أن كل لحظة تمر يستفيد أولئك اللصوص الذين سيهاجمون قصرك في باريس.

وتأبط ذراع المليونير وجره جرا صوب الجراج. وحين بلغاه تسمر الدوق مكانه وقد نمت أسارير وجهه عن الدهشة.

لم يكن في الجراج إلا سيارة واحدة بدلاً من الثلاث سيارات. ومن العجب أن هذه السيارة كانت هي القديمة التي أراد مسيو مارتان أن

يبيعها إلى كارولیه.. وكان جان وفيرمان جالسين على مقعد السيارة جامدين كأنهما تمثالان من الحجر.

وصاح بهما مسيو مارتان: تحركا.. هل أنتما تمثالان من الحجر.

ولكنهما لم يتحركا. ولم ينطقا بكلمة واحدة. وحمل الدوق مصباحاً واقترب منهما ثم ما لبث أن صاح:

- إنهما مكممان مشدودا الوثاق.

- ماذا تقول؟

وأخرج الدوق مدية من جيبه فقطع القيود وأزاح الكمامات. فصاح فيرمان: إنه كارولیه! عليه اللعنة:

وقال جان معززا: لقد هاجمنا من الوراء هو وأبناؤه وصرعونا أرضا.

وقال فيرمان. ثم قيدونا وكمموا أفواهنا.

وقال جان: ثم سرقوا السيارتين وفروا هاربين.

وقهقه الدوق بملء صوته وقال: إذن فلم يكن صديقك لوبين بالرجل الذي يمزح.! لقد سرق السيارتين حتى يحول دوننا ومفاجأته متلبسا في قصر باريس.! ما ألطف هذه القصة.

فصاح المليونير وقد كادت الصدمة تفقده الرشد: ما ألطف هذه

القصة. جميل جدا.! إذن فأنت تراها قصة لطيفة مع أن تحفي ونفائسي تكاد أن تسرق.

فأمسك الدوق عن الضحك وقال: ينبغي إذن أن نسلك طريقا آخر.. سأذهب وحدي إلى باريس في هذه السيارة العتيقة.

– ولكنها قديمة لا تصلح للرحلات الطويلة.

– ولو.. أن هذا لن يقعدني.. يجب أن أصل إلى باريس بطريقة ما.؟ والمسافة لا تزيد على مائتي ميل على أية حال.! ولكن ما يكون من شأنكم أنتم. أنني لا أحب أن أدعكم وحدكم في القصر وقد يهاجمه اللصوص من لحظة لأخرى.

فصاح مسيو مارتان؟ ومن قال لك إننا سنبقى.؟

إننا سنسافر إلى باريس بالقطار.

– ولكنها تكون رحلة مضنية قاسية.

– فليكن.! فلنسرع.

ورجعا إلى القصر وروى مسيو مارتان لابنته نبأ ما حدث فثارت ثائرتها وراحت تعترض على فكرة السفر بالقطار وقسوتها إذ كيف تطيق البقاء في القطار عشر ساعات.

ولما سكن روعها قالت سونيا: وهل هناك قطار الآن؟

فصاح المليونير. أين جدول المواعيد.! أين الجدول!

فقال الدوق: إني أعتقد أن هناك جدولا في هذا الدرج.

وأخرج جدولا من أحد الأدراج وقدمه إلى مسيو مارتان فجعل هذا يتصفحه ثم قال: نعم.. يوجد قطار الآن في الساعة التاسعة تماما. فلنسرع إذن وإلا فإننا.

فقالت جرمين. ولكن كيف نذهب إلى المحطة مادام الدوق سيستقل السيارة.!

فقال فيرمان: إن مركبة النقل التي تحمل الحقائب مازالت موجودة.

فصاحت جرمين في استخفاف: مركبة النقل.! أتريدون مني أستقل مركبة نقل.! هذا جميل جدا.

فقاطعها أبوها بقوله: ليس لدينا مركبة سواها. فلا حيلة لنا في الأمر.! وسأتولى قيادتها بنفسي.! هيا يا فيرمان شد الجواد إليها.

وفي هذه اللحظة سأل الدوق عن الوقت.. فكان من حسن الحظ أن فيرمان موجودا.. ولهذا اقتصر الخلاف على جرمين وأبيها.. وكل منهما يؤكد أن ساعته هي المضبوطة. فلو أن فيرمان كان موجوداً أيضاً

لبلغ الخلاف أشده لأن ساعته لا تتفق مع ساعتهما.

وأخيراً قال الدوق: إنني منصرف.. وأعتقد أنكم ستبلغون المحطة بعد نصف ساعة.

ونادته جرمين قائلة: ولكن خبرني.. أني أكاد أموت جوعاً فهل في القطار مركبة للطعام.؟

فقال أبوها: لا أعلم.. فيحسن بنا أن نحمل معنا شيئاً من الطعام.

فصاحت جرمين. سونيا، فيرمان. إيرما.! أعدوا لنا شيئاً من الطعام وإذ مرت سونيا بجوار الدوق همست في صوت منخفض:

- كن حريصا ولا تستهدف للأخطار.! إنني لا أحب لك أن تذهب إلى باريس في مثل هذه الليلة المطرة العاصفة فقال الدوق باسما: سأكون حريصا.

وبعد لحظات كان في طريقه إلى باريس. والسيارة تطوي به الأرض طيا.

ودخل السائق جان وقال: لقد أمرني سيدي الدوق بأن ألزم القصر لأساعد فيرمان على حراسته.

وراح المليونير يلقى إليهما تعليماته. فعهد إلى فيرمان بحراسة البهو لأنه جندي قديم. والبهو في رأيه هو مبدأ الهجوم. وعهد إلى جان

بحراسة قاعة الاستقبال المتصلة بالبهو. ولا سبيل للصعود إليها إلا إذا عبروا البهو أولا.

ثم قدم مسيو مارتان إلى كل منهما بندقية محشوة وقال يخاطب فيرمان: إنني أعتمد عليك.! ولقد أقمتك في موقف الخطر والشرف.. موقف يفتن الجندي الفرنسي الشجاع.! وأنت جندي شجاع..!

ورفع فيرمان رأسه في أنفه وكبرياء. وقال مسيو مارتان مسترسلا:

– إنها مهمة خطيرة.. فقد تواجه وحدك عشرات من اللصوص المسلحين.

فقال فيرمان في فخار: وإني أهل المهمة يا سيدي. فكن مطمئنا لقد اشتركت في حرب السبعين. ومن كان مثلي لا يمكن أن يهاب شيئا.

– حسنا.. إنني مطمئن إلى أن تحفي ونفائسي الموجودة في هذا القصر ستكون بين يديك في أمان. والآن فلنسرع إلى المحطة وإلا فاتنا القطار.

وجلس المليونير في مقعد السائق من مركبة النقل. وجلست جرمين وراءه وهي تدمدم غاضبة.. ورفع المليونير سوطه وهوى به على ظهر الجواد فوثب دفعة واحدة حتى كاد يخلع أجسادهم خلعا. وراحت المركبة تميل يمينا وشمالا فوق الطريق الحجري.. وتخض منهم الأجسام خضا شديدا.

والتفت فيرمان إلى جان وقال في أسى:

– إنها مهمة مزعجة.! إن اللصوص قوم لا يترددون في شيء.. وما يدريني أنهم قد يقطعون أعناقنا.

فقال جان: وما العمل.؟ لا مفر لنا من أداء هذه المهمة.؟ ومع ذلك فإنني غير مستهدف الخطر مثلك فإنهم لن يبلغوا قاعة الاستقبال إلا أن يقطعوا عنقك.. إنك يا صديقي في موقف الشرف والخطر.!

فصاح فيرمان: ألا تبا لهذا الشرف.

قال جان: وسأوصد الباب الذي بيني وبينك.

فصاح الرجل الذي اشترك في حرب السبعين: كلا.. محال أن أسمح لك بأن توصده.!

– بل سأوصده بلا ريب.!

ثم دخلا إلى القصر.. وأتى جان بمجموعة من الصحف ومضى إلى قاعة الاستقبال وهو يقول:

– سأظل أقرأ حتى يغلبني النوم. وأوصيك يا صديقي بأن تظل ساهرا طول الليل.. وإلا باغتك اللصوص وقطعوا عنقك. وإياك أن تتردد في إطلاق النار عندما تلمح شبحا.. والآن طاب مساؤك.

ودخل إلى قاعة الاستقبال وأوصد الباب خلفه بالمفاتيح وقد ترك

فيرمان وحده في البهو.

وحين لقى فيرمان نفسه وحيدا في هذا البهو الفسيح الأرجاء بدأ الخوف يتسرب إلى نفسه. ونمت نظراته عن الذعر. وما لبث إلا لحظات حتى أسرع إلى المطبخ. وكانت زوجته هناك في انتظاره فقال لها:

– من الغريب أنني لم أعرف للخوف طعما منذ حرب السبعين إلا اليوم ومسح جبينه الذي كان يرفض عرقا.

فقالت زوجته ومم تخاف.؟

مم أخاف.؟ من اللصوص.! اللصوص الذين يقطعون الأعناق.

وقص عليها ما حدث وكيف أن مسيو مارتان عهد إليه بموقف الشرف والخطر، فصاحت في انزعاج:

– ألا سحقا لموقف الشرف والخطر. أغلق باب البهو بالمفتاح وتعال إلى المطبخ. فإن من المؤكد أن اللصوص لن يهاجموا المطبخ مطلقا، ألا فليحفظنا الله.

– ولكن تحف سيدي ونفائسه.!

– تبا لها.! وهبهم قطعوا عنقك. فهل تعيد إليك الحياة هذه التحف هيا. أسرع وعد إلى.

وحين رجع فيرمان إلى زوجته. وجدها قد أعدت له طعاما شهيا فراح يلتهمه وهو يرهف السمع من حين لآخر كأنما يتوقع أن يسمع للصوص جلبة وهم يسطون على القصر.

ولما فرغ من الطعام أخذ يشرب الخمر كأسا بعد كأس فألهبت دماءه وأثارت في نفسه ما خمد من شجاعته فراح عن الواجب وكيف أنه يتردد لحظة واحدة في أن يبذل دمه فداء مولاه.. وأن اللصوص إذا حضروا وجدوه على استعداد بتنازلتهم.. وكيف أنه سيهاجمهم بمفرده وإن كانوا عشرات ويقتلهم واحدا بعد الآخر.!

وفيما هو ماض في هذا الحديث إذا بطرقات عنيفة فجائية تنهال على الباب الخارجي للقصر.. فأجفل. وجمد مكانه كالتمثال وقد اتسعت حدقتاه رعبا أما زوجته فقفزت إلى باب المطبخ فأوصدته بالمفتاح. ثم ارتدت إلى زوجها فانكمشت إلى جواره وهي ترتعد.

وظل الطرق مستمر على الباب الخارجي مصحوبا بأصوات صاخبة تنادي.

وبعد خمس دقائق قالت مسز فيرمان في تردد:

- ماذا.؟ يخيل إلى أن هذا صوت مستر مارتان.!

- نعم إنه صوت سيدك.

وجعل الاثنان ينصتان. ثم صاح فيرمان: يا إلهي.!

– نعم.. إنه صوته.! هو بعينه..

وقفز واقفا وحمل بندقيته وغادر المطبخ وهو يجري صوب الباب الخارجي. وإذ فتحه رأى نفسه وجها لوجه أمام سيده وجرمين وسونيا وإيرما.

وصاح به مسيو مارتان ثائرا: تبا لك.! أين كنت؟ أتدعنى ساعة على قارعة الطريق والمطر ينهمر فوق رأسي.!

فقال فيرمان في ارتباك: اللصوص! فقد ظننت أنكم أنتم اللصوص!

– وهل تراني أشبه اللصوص أيها الأحمق.!

ودفعه من طريقه في غضب ودخل إلى القصر.

وقالت جرمين في تذمر. كان ينبغي قبل أن تحملنا مشاق هذه الرحلة أن تتأكد مما إذا كان هناك قطار في الساعة التاسعة أم لا.!

فقال أبوها: كيف أعرف أن بجدول الواعيد خطأ.! أين هو هذا الجدول اللعين.!

وتناول الجدول ونظر فيه ثم صاح: تبا.! إن هذا الجدول خاص بسنة ١٩٠٣م..! لقد مضت عليه ثلاث سنوات.!

فصاحت جرمين في غضب: هذا بلا ريب مزاح سخيف من

جاك.! يقدم إلينا متعمدا جدولا قديما. ويجعلنا نذهب إلى المحطة في هذا المطر الشديد.!

وحانت منها لفتة إلى أحد دواليب الكتب وهتفت:

- رباه.! لقد نسيت العقد اللؤلؤى الذي أهداه إلى جاك اليوم.!

وأسرعت تتناول العلبة. ولكنها ما لبثت أن صاحت

- عجبا.! إن العلبة فارغة.؟

فصاح أبوها. إذن فقد سرق العقد.!

فقالت جرمين: لا أظن ذلك. وإنما يغلب على ظني أن جاك أخذه معه عند سفره إلى باريس.

الفصل الثامن

كان رجال الشرطة جلوسا مقاعدهم في كسل وتراخ وقد كاد يغلبهم النعاس. ولكنهم استفاقوا حين سمعوا دوي سيارة تقف بباب المخفر.

ونظر المفتش إلى القوم مستفسرا فقال هذا: إنني الدوق دي شارميراس صهر مسيو جورناي مارتان لقد تلقى مسيو مارتان سالامس رسالة من اللص الشهير أرسين لوبين ينذره فيها بأنه سيسطو على قصره في صباح اليوم.

وما سمع المفتش اسم لوبين حتى هب واقفا وقد تجلى الاهتمام في عينيه وقال: وأين هذه الرسالة يا سيدي.؟

وناول الدوق الرسالة إلى المفتش فنظر فيها ثم قال:

– تماما.! هذا هو خطه المعروف لنا.

فقال الدوق: إن الوقت ضيق جدا. كان ينبغي أن أصل قبل ذلك ولكن

السيارة قديمة لا تصلح للرحلات الطويلة وقد أصيبت بعطب في الطريق.

فقال المفتش: هيا بنا إذن يا سيدي.

وأمر اثنين من رجاله بمرافقته.

ولما بلغوا القصر أخرج الدوق من جيبه حلقة المفاتيح ودس المفتاح ذا الشعب وأداره. ولكن الباب لم ينفتح وراح يجرب المفاتيح واحدا بعد الآخر ولكن بلا جدوى.

وقال المفتش. دعني أجرب حظي يا سيدي الدوق.

ولكنها كانت تجربة مخفقة. فقال الدوق: إذن فقد أخطأوا وأعطوني حلقة أخرى.

ولكنه ما لبث أن قال مستدركا: ولكن لا.. إن هذه المفاتيح قد أبدلت.

فقال المفتش في استغراب: أبدلت؟. كيف.؟

– نعم.. فقد رأى مسيو مارتان بالأمس لصا يفر هاربا من شرفة البهو في قصره الريفي. وقد وجدنا الدرج الذي به هذه المفاتيح محطما. فلا شك أن هذا اللص سرق المفاتيح الحقيقية ووضع هذه الحلقة تضليلا لنا.

– تضليلا لنا.؟

فقال المفتش لأحد رجاله: اذهب إلى الباب الخلفي. وعاد الرجل

يقول إن الباب الخلفي موصد أيضا.

وراح المفتش يطرق الباب في عنف دون أن يلبي نداءه أحد.

وقال المفتش في استغراب: هذا عجيب.. أليس للقصر بواب.؟

– إن له بوابا.. وهناك أيضا خادمة عجوز تدعي فيكتوار فأرجوا أن لا يكون اللصوص قد فتكوا بها.

فهز المفتش رأسه نفيا وقال. كلا.. إن أرسين لوبين لا يسفك الدماء إنه يمقت العنف.

– ألا ترى أنه يحسن بنا أن نقتحم الباب.؟

– ألا يغضب تحطيم الباب مسيو مارتان.؟

فقال الدوق: إنني أتحمل المسئولية وحدي.

– فليكن إذن.

ومضى أحد الشرطة يدعو نجارا. وفحص الباب برهة ثم قال: إن تحطيم هذا القفل المتين يستغرق ساعة على الأقل. ولكن في وسعي أن أنشر الخشب حول القفل أنزعه من موضعه. وهذه عملية بسيطة لا تستغرق غير دقائق قليلة. ولكنها ستشوه الباب طبعا.

فقال الدوق: بل انشر الباب فإن الوقت ضيق. ونحن نريد نكسب وقتا.

ولم تمض لحظات حتى كان الباب مفتوحا. ودخل المفتش إلى القصر وهو شاهر مسدسه وفي أثره الدوق والشرطيان. وكانت النوافذ موصدة فأسرع أحد الشرطة وفتحها فغمر النور المكان.

وأشار المفتش إلى غرفة البواب وقال لأحد رجاله:

- انظر ما حل بالبواب.

وعاد الرجل يقول: إنه مكمم مشدود الوثاق وكذلك زوجته.

فقال الدوق: إن لوبين ينوي أن يسطو على القاعات الواقعة في الطابق الأول لأنها هي التي تضم التحف التي ينوي أن يسرقها. فلنسرع إليها فإنه من المحتمل أن يكون اللصوص هناك.

وصعدوا راكضين إلى الطابق الأول. ودفع الدوق باب قاعة الاستقبال ثم وقف مكانه جامدا وقد أدرك أنه وصل بعد فوات الوقت.

كانت القاعة عارية الجدران من الصور والسجاجيد الأثرية.. وكانت النافذة مفتوحة وقد تهشم أحد ألواحها الزجاجية. وأطلا من الخارج كان هناك مسند سلم خشبي.. وكانت هناك منضدة أثرية موضوعة بالقرب من النافذ وقد برزت حافتها إلى الخارج.

وكانت هناك في ركن القاعة مدفأة كبيرة مقامة من الجدار نفسه.. وأمامها حاجز للنار مصنوع من الحديد المبطن بمواد عازلة للحرارة.

وكانت المقاعد موضوعة أما هذا الحاجز في شبه دائرة وقد شدت بالحبال استعدادا لنقلها.

وأسرع الدوق والمفتش يطلان من النافذة فألفيا الحديقة خالية. ورأيا في طرفها الأقصى وخارج السياج «سقالات» خشبية مقامة في البيت المجاور الذي كان أصحابه شارعين في بنائه وإصلاحه.

وأدرك الدوق أن اللصوص دخلوا إلى القصر من خلال سياج الحديقة عند الجزء الملاصق للبيت الذي لم يتم بناؤه بعد. وتحول الدوق عن النافذة ونظر إلى الجدار حيث كانت إحدى الصور المسروقة وهتف: انظر.! انظر.

فقد كان اسم أرسين لوبين مكتوبا على الجدار. وقال المفتش: ينبغي أن ندعو مسيو جوشار فهو الذي يستطيع أن يتولى تحقيق هذه القضية.

ومضى إلى مقصورة التليفون. أما الدوق فدخل إلى قاعة الاستقبال الصغرى. فوجدها هي أيضا كانت فريسة للصوص إذ لم يكن فيها إلا توقيعه ظاهرا على الجدران حيث انتزعت الصور والسجاجيد الأثرية.

ورجع المفتش بعد لحظات ومضى يفتش الغرف ويبحث عن آثار تفيد التحقيق. فلم يجد حتى بصمات الأصابع.. فقال في يأس.

والآن ينبغي أن نبحث عن الخادمة فيكتوار.. ولا يبعد أنها لازالت

مستغرقة في النوم لا تدري بشيء مما وقع.

ولكنهم لم يجدوا فيكتوار في غرفة الخدم. ولا في أية غرفة أخرى وقال الدوق: غريب جدا..! أين ذهبت يا ترى.؟

فقال المفتش. لا ريب أنها شريكة اللصوص وقد رافقتهم عند فرارهم.

فقال الدوق: لا أظن هذا فإن مسيو مارتان شديد الثقة فيها.

– إذن فقد كان مخدوعا في ثقته بها.

ولما أزيلت الكمامات عن فم البواب وزوجته قال هذا إن اللصوص باغتوه فشدوا وثاقه. ولما سئل عن فيكتوار قال إنه لا يعلم من أمرها شيئا.

وقال المفتش: سأتصل الآن بمدير الأمن العام.

فقال الدوق: واسأله أن يبعث إلينا بجوشار.

– ولكن قاضي التحقيق مسيو فورمرى لا يحب جوشار

– ومن يكون مسيو فورمرى هذا. إنني لم أسمع باسمه إلا اليوم.! أتراه كفئا.؟ نعم. إنه كفء جدا.

فقال الدوق: ولكن لا مفر من أن ندعو جوشار فبهذا أوصافي مسيو مارثان. إذ أنه يعتقد أن جوشار هو أصلح من يتولى منازلة أرسين لوبين.

وراح المفتش يتحدث تليفونيا إلى مدير الأمن العام. ويروى له تفاصيل ما حدث. وأخيرا تدخل الدوق في الأمر وقال:

– إنني أحب أن أتحدث إليه بنفسي.

ثم تناول السماعة وقال يخاطب مدير الأمن العام.

– إنني الدوق دي شارميراس. وقد عهد إلى مسيو مارتان أن أرجوك تكليف جوشار بتحقيق هذه القضية.

فوعده المدير بذلك. والتفت الدوق إلى المفتش وقال:

– ومتى يحضر مسيو فورمري قاضي التحقيق.؟

– بعد ساعة.. بمجرد فراغه من تناول الفطور.

فقال الدوق باسما. الفطور.! والله لقد نسيت أنني لم أتناول طعاما منذ ليلة الأمس...

وأمر البواب بأن يبتاع له شيئا من الطعام. ثم مضى إلى قاعة الاستقبال وتهالك على أحد المقاعد وراح يدخن صامتا.

وبعد فترة من الوقت سمع نقرا على الباب وصوت المفتش وهو يقول: لقد جاء مسيو فورمرى يا سيدي الدوق.

الفصل التاسع

دخل مسيو فورمرى يتبعه مفتش البوليس الذي قام بواجب التعارف . . وقال القاضي : يسرني أن أتعرف بسموك وإن كان هذا التعارف قد تم في ظروف مزعجة .

وأحنى الدوق رأسه ورد بعض كلمات المجاملة.

وقال الدوق في نفسه: ليت شعري كيف يفلح هذا في إقناص لوبين إذا كان جوشار قد أخفق وهو المعروف بالذكاء.

وقال قاضي التحقيق: أهنا مكان الجريمة.؟

فأجابه المفتش: نعم يا سيدي إلا إذا كانت قد وقعت سرقات أخرى لا نعرفها. ولكننا سنتبين الحقيقة من مسيو مارتان عند قدومه.

فقال الدوق باسا: إنني أخشى أن يكون مسيو مارتان عند قدومه في حالة لن يمكن معها من الإدلاء بأي بيان.! فقد كان وهو في قصر

دي شارميراس أشبه بالمجانين. ولكن في وسعي أن أقرر مبدئيا أن السرقة وقعت في هاتين الغرفتين إذ كان مسيو مارتان يودعهما مجموعة نادرة من التحف.

فقال القاضي: أرجو أن لا تكونوا قد لمستم شيئا أو غيرتم موضع شيء حتى لا تضيع آثار اللصوص.

– كلا يا سيدي. إن كل شيء باق على حاله.

وراح المفتش يروي للقاضي تفاصيل ما حدث فقال هذا:

– من المحتمل جدا أن البواب وزوجته وفيكتوار شركاء اللصوص.

فقال الدوق متسائلاً: وهل من عادة أرسين أن يتخذ شركاء.؟ ومعذرة عن جهلي فقد أمضيت سبعة أعوام في القطب الجنوبي.

فقال مسيو فورمرى في استغراب: لوبين.! وما شأن لوبين بهذه السرقة؟

– لقد بعث إلى مسيو مارتان برسالة ينذره فيها بهذه السرقة وعقب وصول الإنذار سرقت سيارتان من جراج قصر دي شارميراس.. وهذه توقيعاته على الجدران.

فقال مسيو فورمرى في ازدراء:

– لوبين.! لوبين.! دائما لوبين.! كل سرقة تقع ينسبها الناس إلى

لوبين.! ماذا.؟ أليس في هذه الدنيا لص غير لوبين.؟ وهذه الإمضاءات لم لا تكون مزورة.؟

فقال الدوق: ترى هل يشاطرك جوشار هذا الرأي؛

– جوشار.! إنه لا يفهم شيئا.. وشبح لوبين دائما مائل أمام عينيه ولكننا لن نستعين بجوشار.

– ولكن مسيو مارتان ألح في دعوته. وقد اتصلت به تليفونيا ودعوته.

فهز مسيو فورمرى كتفيه وقال:

– إيه.. مادمت قد دعوته فقد انتهى الأمر.! ومع ذلك. فما كانت هناك ضرورة تدعو إلى الاستعانة به على الإطلاق.

وراح مسيو فورمرى يدير بصره في القاعة وهو يقول:

أرسين لوبين.! هذه أوهام.! إن لوبين ليس بالرجل الذي يترك وراءه أثرا.. والقاعة فيما أرى مكتظة بالآثار.

فقال المفتش موافقا: إن السرقة تبدو في نظري عادية.. ولوبين لا يقدم على مثل هذا النوع من السرقات.

– طبعا.. طبعا.. إنها سرقة عادية تجردت من الإبهام والغموض... لقد دخل اللصوص إلى القاعة من هذه النافذة.. بواسطة هذا السلم..

ثم رجعوا بنفس الطريقة.

ورأى خزانة كبيرة في ركن القاعة فاقترب منها وأدار مقبضها ولكنها لم تفتح فقال:

– إنهم إذن لم يقربوا هذه الخزانة.

فقال الدوق هذا من حسن الحظ لأن تاج الأميرة دي لا مبال مودع في هذه الخزانة فيما أعتقد.

– ولكن كيف لم يمسسها مع أنه توعد في خطابه بسرقة التاج.

مال الدوق: هذا صحيح.. فقد أنذر مسيو مارتان بأنه سيسرق التاج.

فابتسم قاضي التحقيق وقال: أرأيت إذن.؟ هذا دليل جديد على أن لا دخل لأرسين لوبين في هذه السرقة. فهو إن توعد بر بوعيده.! ولكن من الذي يقوم على حراسة هذا البيت؟

فقال المفتش مجيبا: البواب وزوجته وامرأة عجوز تدعي فيكتوار. وقد أمرت أحد رجالي بإحضار الملفات الخاصة بهم.

– وهل وجدتهما مكممين موثقين عند قدومك.

– نعم.. عدا فيكتوار التي لم نعثر عليها حتى الآن. وكانت الحبال زرقاء والكمامة صفراء. أي نفس الألوان التي اعتاد لوبين أن يستعملها.

– ولكن كيف لم تعثروا على فيكتوار؟

– لقد فتشنا البيت تفتيشا دقيقا فلم نقع لها على أثر.

فانفرجت أسارير فورمرى وقال:

– عال جدا.. إذن فهي شريكة اللصوص. ومادمنا قد اهتدينا إلى أحد الشركاء فقد هانت مهمتنا وسهل الاهتداء إلى الباقين.

فقال الدوق: ولكن مسيو مارتان يثق بهذه الخادمة فيكتوار ثقة مطلقة غير محدودة..

وقد كانت الجواهر وهدايا العرس في حراستها.

– وأين هي هذه الهدايا والجواهر.! هل سرقت هي أيضا.؟

– إذا كان اللصوص لم يسطوا إلا على هاتين القاعتين فلا شك إذن أن الجواهر باقية لم يقربها أحد.

– هذا غريب جدا. ولكن هل فتشتم جميع الغرف.؟

– نعم. ومع ذلك لن نعثر لها على أثر.

– ألم تعثروا على ثياب ممزقة. أو بقع من الدم.

– كلا... لم نجد شيئا من هذا مطلقا.

– غريب جدا.! وهل كان فراشها منسقا.؟

كان فراشها مشوشا. ولكني وجدت ثيابها كاملة لا ينقص منها شيء إذ ظننت أن من المحتمل أنها فرت.

فبانت أمارات التفكير في وجه مسيو فورمرى وقال:

– غريب جدا. إن الأمر يبدو معقدا غامضا.

فقال الدوق: ربما استطاع جوشار أن يجلو هذا الغموض.

فقطب مسيو فورمرى جبينيه وقال: نعم. ربما. إنني لا أغمط جوشار حقه من الذكاء. ولكنه منذ صار يعتقد أن لأرسين لوبين يدا في كل حادث أصبح رجلا لا نفع فيه. إن هذا الوهم السخيف يجعله يتخبط في استنتاجاته وآرائه ويضله كثيرا عن الحقيقة.

ورأى الدوق كتابا ملقى على الأرض فهم بأن يرفعه ولكن مسيو فورمرى ابتدره بقوله:

– أرجوك أن تدعه مكانه. فقد تفسد برفعه أثرا هاما.

وغمغم الدوق يقول: غريب جدا.؟

– ما هو هذا الشيء الغريب..

– إن تحت الكتاب أثر قدم.

فأزاح مسيو فورمرى الكتاب ورأى الأثر جليا فقال:

– هذا الأثر ملوث بما يشبه الجير.! فمن أين جاء هذا الجير؟

فقال الدوق: ألا يجوز أن اللصوص أتوا من الحديقة.

فقال قاضي التحقيق: وهل في ذلك ريب؟ لقد جاءوا طبعا من الحديقة. وفي أقصى الحديقة منزل جديد لم يكمل بناؤه بعد.

فقال مسيو فورمرى: هذا صحيح..! إذن فقد مر اللصوص من هذه العمارة فتلوثت أحذيتهم بالجير.. وعند انصرافهم أزالوا آثار أقدامهم ولكن اتفق أن سقط الكتاب فوق هذا الأثر فأخفاه عن عيونهم فظل مكانه لم يمسح..! آه.. عال جدا..! هذا دليل جديد يؤيد نظريتي في أنهم دخلوا القاعة بواسطة السلم المسند إلى هذه النافذة. وهذا هو التفسير الوحيد لوجود السلم مسندا إلى النافذة.. ولوجود الطاولة إلى جوار النافذة وحافتها بارزة منها! أرجوك أن تأخذ مقاسات هذا الأثر يا حضرة المفتش. ولا ريب عندي في أننا سنجد آثارا أخرى مشابهة في الجير الموجود في العمارة.

ودخل أحد الشرطة يقول: لقد وصل الخدم يا سيدي الدوق قادمين من دي شارميراس.

فقال قاضي التحقيق: فلينتظروا في جناح الخدم.

ثم التفت إلى الدوق وقال: أرجوك يا سيدي الدوق أن تروى لي

حادث سرقة السيارات.

فقال الدوق: بعد أن وصلتنا رسالة أرسين لوبين قررنا أن نسافر إلى باريس بالسيارات لنحول دون وقوع السرقة. ولكننا وجدنا الخادم وحارس الصيد مكممين موثقين في الجراج. ولم نجد أثرا للسيارتين السريعتين اللتين كنا نعتمد عليهما. إذ لم يترك لنا اللصوص سوى السيارة القديمة.

– هذا شيء له خطورة.. وهل لم يسرق شيء آخر عدا السيارتين.؟ ألم تقع سرقات أخرى.؟

فتردد الدوق هنيهة ثم قال: وقعت سرقة أخرى.. أو بعبارة أصح وقعت محاولة للسرقة.

وحدثه بما كان من زيارة كارولیه وأبنائه للقصر وكيف حاول أحدهم سرقة العقد اللؤلؤي لولا أن ضبطه الدوق متلبسا.

وفرك مسيو فورمرى كفيه جدلا وهتف:

– عال جدا.! إذن لقد عرفنا أحد أفراد العصابة.. إذن لابد لي من استجوابه.

فقال الدوق: أخشى أن يكون هذا الاستجواب مستحيلا.

- مستحيلا.! ولماذا.؟ هل هرب من البوليس.؟

- كلا.. ولكني لم أسلمه إطلاقا إلى البوليس.

فصاح مسيو فورمرى في حدة: كيف هذا.؟ هل أطلقت سراحه.؟

- نعم.. كان المسكين شديد الهلع. وجعل يتوسل إلي أن أصفح عنه فأشفقت عليه وأخليت سبيله. وقنعت من الأمر باستعادة العقد.

فصاح مسيو فورمرى: وواجبك نحو الهيئة الاجتماعية يا سيدي.؟

وراح مسيو فورمرى يتمشى في أرجاء الغرفة وقد لاحت عليه أمارات التفكير ثم قال بغتة. لا ريب أن هناك علاقة قوية بين السرقة التي وقعت في هذا القصر وبين السرقة التي وقعت في قصر شارميراس.

وهز المفتش رأسه إعجابا بما أبدى قاضي التحقيق من براعة في الاستنتاج أما الدوق فارتسمت على شفتيه ابتسامة استخفاف إذ كان هذا الاستنتاج من البديهات الواضحة.

وقال القاضي بعد فترة من السكوت: لقد بدأت الأمور تنجلي. وبدأت أجمع في يدي خيوط الحادث.. يا حضرة المفتش أرجوك أن تستدعي البواب وزوجته.

وكان البواب عجوزا تجاوز الستين أما زوجته فكانت أصغر منه

بسنوات قليلة.

وقال القاضي يخاطب البواب: هل أصابك سوء؟

– كلا يا سيدي. وإن كنت لا أكتمك أن الرعب استولى علي.

وصاحت زوجته: إن من العار أن نهاجم بهذا الشكل ونحن في عقر دارنا.! لو أن البوليس يفهم واجبه لما وقع هذا الحادث.

وقال القاضي يقاطعها: أما سمعت ما يريب أو رأيت شيئا غير عادي؟

– كلا.. على الإطلاق.

– ألم تسمعا مثلا وقع أقدام.؟

فأسرعت زوجة البواب تقول: إن من المستحيل أن نسمع ونحن في غرفتنا ما يجرى في الحديقة.

– ألم تسمع يا رجل أية جلبة عند الباب الخارجي.؟

– كلا..

– إذن فلم تر أي شيء طول الليل.

– لقد سمعت جلبة بعد أن كممنا اللصوص.

فقال مسيو فورمرى. هذا شيء له خطورته.! من أي نوع هذه الجلبة.؟

– وقع أقدام في الغرفة وطرقات كثيرة.

– أية غرفة.؟

– الغرفة التي فوقنا.. أعني قاعة الاستقبال الكبرى.

– ألم تسمع ما يدل على حدوث عراك.؟ مثلا صوت جسم يجر على الأرض. أو صرخات.؟ أو شيء من هذا القبيل.

ونظر البواب إلى زوجته ثم أجاب بالنفي. وأيدته زوجته في قوله. وبعد سكتة قصيرة قال مسيو فورمرى:

– كم أمضيت في خدمة مسيو مارتان.؟

– أكثر من سنة.

ونظر قاضي التحقيق في الملفات التي أمامه وقال: لقد سبق أن حوكمت مرتين وحكم عليك.؟

– نعم يا سيدي ولكن..

غير أن زوجته ابتدرته مقاطعة: إن زوجي يا سيدي القاضي رجل شريف أمين. ويمكنك أن تسأل عنه مسيو مارتان.

فقال مسيو فورمرى في لهجة غاضبة: اسكتي يا امرأة.. لقد حكم عليك في المرة الأولى بالسجن يوما واحدا. وفي المرة الثانية بالسجن ثلاثة أيام.

- ولكنها كانت تهما شريفة يا سيدي القاضي.

- تهما شريفة.؟

نعم.. فقد حوكمت في المرة الأولى لأنني هتفت وسط جماعة من العمال أدعوهم إلى الإضراب. وقد كنت إذ ذاك في خدمة مسيو جينليس.

- الزعيم الاشتراكي.؟

- نعم يا سيدي. وفي المرة الثانية حوكمت لأنني اعتديت على البوليس. وقد كنت إذ ذاك في خدمة وكيل الحزب الملكي مسيو رابولين.

فابتسم القاضي وقال: إذن فقد كنت قائما بخدمة مبدأين متناقضين.

فما كان من البواب إلا أن أجاب في بساطة. إن مبدأي يا سيدي هو مناصرة مبدأ من أكون في خدمته.

وبعد أن انصرف البواب وزوجته قال مسيو فورمرى:

- إنني أعتقد أنهما صادقان والآن فلنفتش المنزل يا سيدي الدوق فقد نقع على أثر يهدينا إلى اللصوص.

الفصل العاشر

مضى قاضي التحقيق يفتش غرف القصر المختلفة، وفي رفقته الدوق دي شارميراس. ومفتش البوليس.. وكان جليا أن القاضي يعتقد أن فيكتوار قتلت.

فلما لم يجد في مخدعها أثرا للدماء لاحت عليه أمارات خيبة الأمل. ولكنه ما لبث أن قال:

– وما يدريني أن اللصوص قتلوها خنقا. وأن هذا هو السبب في أننا لم نهتد إلى أي أثر للدم.!

وأسرع المفتش إلى التأمين على هذا الرأي. وكان هذا رأيه دائما حتى اعتقد القاضي أن المفتش رجل نابه مثله.

ولما بلغوا الحديقة القوا عند أسفل السلم الخشبي آثار أقدام كثيرة

قد اختلط بعضها ببعض. كما وجدوا في الممر الذي يصل بين الحديقة والعمارة القائمة في أقصاها كوما من الجير بانت فيه أقدام كثيرة ولكنها كانت بدورها مختلطة ضاعت معالمها.

وفي ذلك الوقت نفسه كان هناك رجل داخل القصر ينزل على السلم متجها إلى الطابق الأول.

وكان هذا الرجل يتجاوز الأربعين من العمر ولا يمتاز إلا بشيء واحد تلك النظرات الحادة النفاذة.

وما كان هذا الرجل إلا المفتش جوشار رئيس قسم البوليس السري في إدارة الأمن العام. وعدو أرسين لوبين اللدود.

وقال له الشرطي القائم بباب قاعة الاستقبال:

– هل أخطر مسيو فورمرى بقدومك يا مسيو جوشار.؟

كلا.. لا داعي لذلك مطلقا.

ثم دخل قاعة الاستقبال وراح يفحصها فقال له الشرطي

– إن غرفة الخادمة واقعة في الطابق الأعلى ويمكن بلوغها بواسطة هذا السلم. وقد فتشها مسيو فورمرى.

فقال جوشار: شكرا.. إنني هابط منها توا.

فقال الشرطي في إعجاب: إنك يا مسيو جوشار أبرع من مئات من قضاة التحقيق مجتمعين.

فابتسم جوشار وقال: ينبغي يا صاح أن نكتم هذا الرأي. وألا أثرت عليك نقمة الآخرين.

وأشار الشرطي إلى السلم المسند إلى النافذة وقال:

- يظهر يا سيدي أن اللصوص دخلوا إلى هذه القاعة وخرجوا منها بواسطة السلم.

- شكرا لك..

- ومسيو فورمرى يعتقد أن لوبين بعيدا عن ذلك الحادث وأن خطابه إلى مسيو مارتان مزور مزيف.

فقال جوشار: أهذا رأيه حقا.؟

- اذن أرجوك أن تحفر هذه القاعة. وإياك أن تسمح لأحد بالدخول عدا مسيو فورمرى طبعا أو المفتش أو الشرطين يونافنت وديوزى.

- نعم يا سيدي.؟

فقال الشرطي: والدوق دى شارميراس.؟ هل أمنعه من الدخول.؟

- الدوق دى شارميراس.؟ أوه.. كلا.. لا تمنعه طبعا.

وإذ خلا جوشار إلى نفسه راح يفحص الغرفة بعناية تامة. ففحص السلم الخشبي والمنضدة المجاورة للنافذة وإمضاءات لوبين والجدران. والأثر الملوث بالجير الظاهر على الأرض. ثم قاس المسافة التي بينه وبين النافذة.. قاسها على اتساع خطوته.. ويظهر.. إن نتيجة هذه المقاسات كانت غير مرضية فقد قطب جبينه وغرق برهة في التفكير.

ثم جثا على ركبتيه وأخرج من جيبه عدسة كبيرة وراح يفحص السجادة باهتمام.

ثم زحف على بطنه حتى بلغ المدفأة التي يخفيها حاجز النيران ومد عنقه وراء الحاجز وابتسم. ثم نهض واقعا وغادر القاعة ذاهبا إلى قاعة الاستقبال الصغرى ففحصها بعناية. ثم ارتد مرة أخرى إلى النافذة التي أسند إليها السلم الخشبي. وفحص اللوح الزجاجي المكسور. ثم أشعل سيجارة ووقف يدخن وقد غلبت عليه خواطره.

ومرت عشر دقائق. ثم انتبه على أصواب عند الباب فما كان منه إلا أن تخطى سياج النافذة بسرعة وهبط إلى الحديقة بواسطة السلم الخشبي.

وفتح الباب ودخل مسيو فورمرى يتبعه الدوق والمفتش والشرطي القائم بحراسة الباب. وقال القاضي في استغراب:

- عجبا.! أين جوشار.؟

فقال الشرطي: لا أدري.! لقد كان في هذه القاعة. بواسطة هذا السلم الخشبي ذاهبا إلى العمارة.! إنه سيفعل الآن ما فعلناه نحن منذ دقائق.! ولو أنه سألني لوفرت عليه هذه المشقة. ولأنبأته بكل ما ينبغي أن يعلم.

فقال الدوق: يحتمل أن يهتدي إلى شيء غاب عنا.

فقال القاضي في لهجة عتاب. محال يا سيدي! إن قوة الملاحظة تنمو مع كثير من المران يا سيدي. وثق أنني لم أغفل في بحثي شيئا.

وجعل مسيو فورمرى يتمشى في أرجاء الغرفة وقد بدت في وجهه أمارات التفكير العميق. ثم قال فجأة: إنني كلما ترويت في الأمر أيقنت أن لابد لأرسين لوبين في هذا الحادث أنها سرقة عادية تافهة. مجردة من أي لبس أو غموض.. ألست من هذا الرأي يا حضرة المفتش.؟

فقال المفتش على عادته مؤمنا: طبعا. طبعا. إن أرسين لوبين بعيدا عن هذا الحادث بعدا تاما.

فقال القاضي: ولكني موقن من أن مسيو جوشار لن يقرني على هذا الرأي.. ومن المستحيل أن أتمكن من إقناعه لأن لوبين عنده أشبه بالوهم المتسلط أو المرض المزمن.؟ فلو وقعت سرقة في المريخ لقال إن لوبين هو مرتكبها.

فقال الدوق متسائلاً: ولكن ألم يقبض على لوبين مرة؟

– كلا.. ولن يقبض عليه فهذا الوهم يضله عن الطريق السليم.

وبعد سكتة قصيرة عاد يقول: عندما عرفت باختفاء فيكتوار خطر لي أنها قتلت. ولكني لم أجد أثرا يدل على قتلها. ولهذا خطر لي رأي آخر لا ريب أنه هو الصواب. لا أن فيكتوار شريكة اللصوص. ولا ريب أنها شوشت فراشها لتضللنا ولكنها لم تنم فيه مطلقا.

فقال الدوق: إذن فأنت تعتقد أنها شريكة اللصوص؟

– هذا لا ريب فيه. ويحسن بنا أن نفتش غرفتها مرة أخرى.

وبرز رأس جوشار من النافذة وهو واقف على السلم الخشبي. وسمعه الحاضرون يقول:

– لا داعي يا عزيزي فورمرى لأن تحمل نفسك هذه المشقة.

فتحول القاضي صوب النافذة وقال في دهشة:

– جوشار.! أنت هنا.!

– نعم.. إنني هنا.

وتخطى حافة النافذة وقفز إلى القاعة. وبعد أن تم التعارف قال الدوق:

– لقد سمعت يا سيدي عن ذكائك ودهائك النادر فرجوت مدير الأمن العام في إلحاح أن يعهد إليك بهذه القضية.

ولكن مسيو فورمرى أنبرى يقول مقاطعا: ولكن ما الذي كنت تفعله على السلم.؟

فابتسم جوشار وقال في بساطة: كنت أصغى إلى ما تقولون إن من عادتي يا صديقي أن أصغى إلى الناس وهم يتكلمون إذا كنت مستغرقا في التفكير.. وبهذه المناسبة دعني أهنئك على طريقتك البارعة التي سلكتها في تحليل هذه القضية.

فانحنى مسيو فورمرى شاكرا.. ولكنه في الوقت ذاته كان يسائل نفسه عما إذا كان جوشار جادا في قوله أم أنه يريد أن يهزأ به.

واسترسل جوشار يقول: نعم.. أهنئك وإن كنت أخالفك في نقطة أو نقطتين.

وأراد فورمرى أن يتحاشى الجدل فقال مغيرا مجرى الحديث:

– إذن فلا داعي في رأيك لتفتيش مخدع فيكتوار مرة أخرى.

– نعم.. لا داعي مطلقا لأنني فتشته بنفسي.

وفتح الباب في هذه اللحظة ودخل البوليس السري يونافنت

مساعد جوشار وفي يده قطعة من القماش وهو يقول:

– لقد وجدت هذه القماشة يا سيدي بالقرب من حافة البئر الموجود في هذه الحديقة. ولما عرضها على زوجة البواب قررت أنها قطعة من ثوب فيكتوار.

فصاح مسيو فورمرى: آه.! هذا مما كنت أتوقعه! لا ريب أنهم قتلوها هيا بنا إلى البئر إذن.

وسار إلى الباب مسرعا ولكن جوشار ظل في مكانه لا يتحرك وقال:

– أظن أنه لا داعي لأن نبحث عن فيكتوار في البئر.

فقال مسيو فورمرى في انفعال: وهذه القماشة المنزوعة من ثوبها.

فالتفت جوشار إلى الدوق وقال: هل في هذا البيت كلب أو قط؟

فصاح مسيو فورمرى في غيظ: نبحث في جريمة قتل وأنت تسأل عن الكلاب والقطط.؟

فابتسم جوشار وقال: ولكن لهذا السؤال أهمية كبيرة.

وقال الدوق مجيبا: إنني أعرف أن في هذا البيت قطا

فقال جوشار: إذن فهذا القط هو الذي أنزع هذه القطعة من الثوب وذهب بها إلى البئر.

واحمر وجه مسيو فورمرى وقال: هذه نظرية مضحكة إننا يا صديقي إزاء جريمة قتل. فأرجوك أن نطرح المزاح جانبا.

فقال جوشار في بساطة: جريمة قتل.! أقتل أحد هنا؟.

– أقتل أحد هنا؟. فيكتوار طبعا.! يا له من سؤال

فقال جوشار دون أن يزاوله هدوئه: ولكن فيكتوار لم تقتل.

– لم تقتل.! إننا لا نعرف شيئا من هذا.!

أما أنا فأعرف.

فصاح مسيو فورمرى في حنق: أنت.. أنت..

– نعم.. إنني أعرف أن فيكتوار لم تقتل.!

– إذن كيف تفسر اختفاءها.؟

– إذا كانت قد اختفت فليس لدى أي تفسير للأمر.

– إذا كانت قد اختفت.! وهل الأمر يحتمل احتمالا.. إنها قد اختفت طبعا..

فهز جوشار رأسه نفيا وقال: إنني لا أجاريك في هذا الرأي.

فصاح فورمرى وقد اشتد به الغضب: إنك إذن لا تعرف شيئا.!

– بل أعرف.

- أتريد أن تقول إنك تعرف مكانها.؟

طبعا.. إنني أعرف مكانها.

فصاح مسيو فورمرى متهكما: لعلك تريد أيضا أن تقول إنك رأيتها.؟

فأجابه جوشار في هدوء:

- نعم رأيتها.

رأيتها.؟ متى رأيتها متى.؟

ففكر جوشار هنيهة ثم قال: منذ خمس دقائق على الأكثر.

فكاد مسيو فورمرى يخرج عن وعيه وصاح. جوشار دع المزاح جانبا.!

- ولكني لا أمزح.

- كيف رأيتها إذن. إنك لم تغادر هذه الغرفة.؟

- كلا. لم أغادرها.

- ومع ذلك رأيت فيكتوار.؟

- ومع ذلك رأيتها.

فتنهد مسيو فورمرى بطريقة تدل على نفاد الصبر وقال:

- إذن فبالله عليك أين رأيتها.؟
- هنا في هذه القاعة.
- في هذه القاعة.؟ وكيف جاءت إلى هذه القاعة.؟
- محمولة على مرتبة.

فارغى مسيو فورمرى وأزبد وصاح.

- إنني أكره مثل هذا المزاح ونحن في وقت الجد.

فقال جوشار: ولكنني لا أمزح. انظر.!

وسار إلى المدفأة.. وأبعد المقاعد المربوطة بالحبال والتي كانت موضوعة أمام المدفأة على شكل نصف دائرة. ثم جذب حاجز النيران ووضعه في ركن الغرفة. فبان مدخل المدفأة.

وقد رأى الحاضرون عند هذا المدخل مرتبة موضوعة على الأرض وفوقها ترقد امرأة عجوز مكممة مشدودة الوثاق.

وقال جوشار: هذه هي فيكتوار. وهي مستغرقة في النوم فقد خدروها بالكلورفورم.

ومال إلى الأرض فتناول منديلا مبللا بهذا السائل. ثم أمر بعض رجال الشرطة بأن ينقلوا المرأة ويعالجوها ببعض المنعشات.

وكانت هذه المفاجأة قد أذهلت مسيو فورمرى ومست كبرياءه فشعر بالخجل. والتفت إلى المفتش وصاح به:

– ألم تفتش المدفأة يا سيدي.؟

– كلا..

فصاح مسيو فورمرى في غضب: هذه غلطة لا تغتفر يا سيدي المفتش ليت شعرى كيف أستطيع أن أشتغل مع رجال يهملون أبسط الواجبات.

فقال جوشار مدافعا عن المفتش: هذا سهو بسيط.

فقال فورمرى: ومهما يكن فقد كان مفروضا أن أراها على أية حال.!

– طبعا.. لاسيما إذا زحفت على بطنك كما فعلت أنا، فقد كانت قدماها بارزتين من تحت الحاجز.

فقال فورمرى: ولكن من الغريب أن منظر هذا الحاجز لا يدل على أن وراءه شيئا.

– يجب أن لا تخدعك المظاهر يا سيدي في الحوادث التي لأرسين لوبين يد فيها.

فصاح مسيو فورمرى: لوبين.. آه.! لوبين دائما!

وابتسم في تهكم. ثم التفت إلى أحد الشرطة وقال:

– إن إغماء فيكتوار سيطول فامضوا بها إلى مخدعها.

فصاح جوشار: بل امضوا بها إلى مخدع خلاف مخدعها.

فقال جوشار. وليتول أحدكم حراسة الباب.

فقال قاضي التحقيق طبعا.. طبعا..

ثم أعقب هذا سكتة قصيرة. وأخيرا قال القاضي:

– والآن لابد لي من أتروى في الأمر وأدرس جميع الظروف التي أحاطت بهذه الحوادث.. نعم.. ينبغي أن أجمع في يدي جميع الخيوط الكفيلة بإرشادي إلى أثر اللصوص.

وغرق في التفكير.. وارتسمت على شفتي الدوق دي شارميراس ابتسامة. أدرك منها جوشار أن الدوق يزدري ذكاء قاضي التحقيق ولا يقيم وزنا لآرائه.

الفصل الحادي عشر

مرت لحظات وجوشار يرقب قاضي التحقيق وهو غارق في خواطره ثم تسلل من الغرفة دون أن يفطن إلى أمره أحد. أما الدوق فمد يده في جيبه متظاهرا بالبحث عن علبة سجائره وغمغم: آه أين سجائري.. ؟

وبدوره تسلل من الغرفة ولحق بجوشار على الدرج وقال له:

– أتسمح لي بمرافقتك يا مسيو جوشار.

طبعا. طبعا. لاسيما أنني أحب أن أسالك الرأي في بعض الأمور.. ولقد كان في وسعنا أن نتباحث في شأنها أمام مسيو فورمرى ولكن..!

فقال الدوق مقاطعا: يحسن بنا أن لا نزعج مسيو فورمرى في تفكيره العميق.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة. فضحك جوشار وقال:

- هذا صحيح.! هذا صحيح.!

ولما خرجا إلى الحديقة مضى جوشار يسأل الدوق عن كارولیه وأبنائه وأوصافهم وحادث سرقة العقد.

وأخيرا قال الدوق. ألا يجوز أن يكون مسيو كارولیه هو أرسين لوبين نفسه.؟

- هذا جائز طبعا. فهو في قدرته على التنكر لا يجارى.. وقد التقى به زميلي جانمار ثلاث مرات. ومع ذلك فقد كان يجده في كل مرة مختلفا عنه في المرة الأخرى. ومن الغريب أنك لا تجد في الصور التي لدينا لأرسين لوبين صورتين تتشابهان. ولا عجب في هذا فقد كان لوبين أبرع الممثلين.

وبعد هذا بدأ يسأل الدوق عن خدم مسيو مارتان إذ لم يكن يستبعد أن يكون هؤلاء الخدم أعوان للوبين.. كما أن من المحتمل جدا أن يكون لوبين نفسه هو أحد الخدم متنكرا فقال الدوق: ولكن كيف يستطيع أن يجمع بين هاتين الصفتين.! أعني كيف يكون هو كارولیه. وفي الوقت ذاته كيف يكون أحد الخدم.؟

فقال جوشار: ولكني لم أقطع بأن كارولیه هو لوبين بل إنني أرجح أنه هو، فإن سرقة السيارات ليست بالأمر الخطر الذي ينبغي أن يتولاه بنفسه.

وأخيرا قال الدوق: إنني أعتقد أن اقتناص لوبين ليس بالأمر السهل. وخصوصا أنكم لم توفقوا إلى القبض عليه من قبل.

فقال جوشار مقاطعا: ولكننا قبضنا عليه من قبل. لقد اعتقله جانيمار مرتين. غير أنه استطاع أن يفر هاربا في المرة الأولى. أما في المرة الثانية فضلل المحكمة إذ استطاع أن يثبت أنه ليس هو لوبين فأفرج عنه فورا.

فهز الدوق رأسه وقال: هذا غريب! ولكن ألا يحتمل أنكم كنتم مخطئين.؟

– كلا.. لأنه ما كاد يغادر قاعة المحكمة حتى انفرد بجانيمار في مكان خال وحدثه بأمور لا يعرفها أحد سوى لوبين وجانيمار. ولما هم جانيمار بأن يقبض عليه مرة أخرى. لكمه لوبين فألقاه على الأرض صريعا وفر هاربا. غير أن لكل رجل نقطة ضعف. وهذه النقطة عند أرسين لوبين هي افتتانه بالنساء الجميلات. ولقد كانت المرأة هي السبب في وقوعه بين أيدينا مرة بعد الأخرى.! ولقد اتخذ جانيمار وشرلوك هولمز المرأة شركا لاصطياد أرسين لوبين.

فقال الدوق. ولكنه شرك وضيع.؟

فقال جوشار: وضيع..! إن كل شيء مباح في مطاردة هذا اللص الخطير.

فقال الدوق: طبعا.. طبعا.. إن كل شيء مباح.. ولكن إلى أي شيء

انتهت هذه المطاردة.؟

– لقد استطاع جانيمار أن يظفر بلوبين.. ولكنه فر بعد ربع ساعة.

– وما كان من شأن المرأة التي وشت به.؟

– لقد سمعت أخيرا أنها ماتت.

فقال الدوق: وهل يمكن أن توجد في العالم امرأة تحب لوبين أو من كان من طراز لوبين.!

فقال جوشار: بل إن الأمر على نقيض ذلك يا سيدي الدوق... وفي وسعي أن أؤكد أن عشرات من نساء الطبقة العليا عرضن على ألوفا من الفرنكات لكي أقدمهن إلى أرسين لوبين.. إنهن يرين فيه بطلا.. ويهمن به حبا.

وكان في خلال هذا الحديث يتجولان في الحديقة. فشاهد جوشار أثر الأقدام الظاهرة عند أسفل السلم الخشبي. وفي كومة الجير في العمارة. ثم التفت إلى الدوق وقال: يحسن بنا أن نعود الآن إلى القصر فقد رأيت كل ما أحب أن أرى.

ولما رجعا إلى القصر رأيا مسيو فورمرى لا يزال غارقا في التفكير فلما رآهما داخلين عليه رفع رأسه وقال: لا ريب إن اللصوص نقلوا هذه المسروقات الثقيلة في مركبة نقل بالباب.

فقال جوشار: لقد عهدت إلى ديوزى! أن يتحرى عن ذلك.

– حسنا.. وهل وجدت آثارا ذات نفع في الحديقة أو في القصر.؟

فقال جوشار في اقتضاب: نعم.. وجدت آثارا كثيرة.

فقال مسيو فورمرى ساخرا: طبعا آثار لوبين.!

– كلا..

فابتسم قاضي التحقيق وقال: يلوح لي أنك استطعت أخيرا أن تنقذ نفسك من هذا الوهم المتسلط عليك وتعدل عن رأيك..

فقال جوشار في هدوء: إنني لم أعدل عن رأيى.

وفي هذه اللحظة ارتفعت من خارج القاعة جلبة حادة.

تم فتح الباب في عنف ودخل مسيو جورناى مارتان ودار ببصره في القاعة ثم صاح.

– اللصوص.! ياللأوغاد.؟ ياللأنذال.!

وتهاوى على أحد المقاعد وراح يبكي.

وأقبلت في أثره ابنته جرمين تتبعها سونيا. وحين رأت جرمين الدوق التفتت إليه وقالت في غضب:

– لقد كان مزاحك سخيفا.. تعلم أن ليس هناك قطار في الساعة

التاسعة. ثم تدعنا نغادر القصر تحت وابل من المطر.!

فقال الدوق في دهشة: ماذا تقولين؟ أليس هناك قطار في الساعة التاسعة؟

– كلا بالطبع. إن دفتر المواعيد قديم.! لقد مضت عليه سنوات.! كان هذا منك مزاحا سخيفا يا جاك.

– ولكني لم أكن أمزح.! وجدت الدفتر في الدرج فنظرت فيه دون أن يخطر ببالي أنه قديم.

فقالت سونيا: ولقد كان هذا ما ظننت إذ ليس معقولا أن يقدم الدوق على دعابة كهذه.

فابتسم الدوق شاكرا.

وقالت جرمين: إنها إذن غلطة تدل على الغباوة.!

وانبعث مسيو مارتان يصيح: تحفي.. صوري.! إن قيمتها نصف مليون فرنك على الأقل.

فقال مسيو فورمرى محاولا أن يهدئ من ثائرته: سنعيد ما سرق إليك يا سيدي فليطمئن بالك.

– أتقول حقا.!

– طبعا.. ومن حسن حظك أن اللصوص لم يظفروا بتاج الأميرة دى لامبال.

فقال مسيو مارتان: أواثق أنت من هذا.؟

فقال الدوق مجيبا: لأنهم لم يمسو هذه الخزانة.

فقال المليونير: ولكن هذه الخزانة فارغة.

فصاح الدوق: فارغة.؟ إذن فقد سرقوا التاج.؟

– كلا. فإن التاج موضوع في.. ولكن هل سطوا على مخدعي؟

فقال قاضي التحقيق: إن الظواهر تدل على أنهم لم يقربوا إلا قاعة الاستقبال.

فابتسم المليونير وقال: إن التاج في الخزانة الموجودة في مخدعي ومفتاحها في جيبي. أما مفتاحها الثاني ففي هذه الخزانة.

فقال مسيو فورمرى: دعني أهنئك إذن بعدم سرقة التاج.

فصاح المليونير: ولكنهم سرقوا تحفي وصوري يا للأنذال.؟

الفصل الثاني عشر

مرت بضع لحظات ومسيو جورناى مارتان هانج ثائر يسب ويلعن وينعي الخسارة التي لحقت به. ولكن ثورته ما لبثت أن سكتت بغته وراح يضرب كفا بكف ويقول: وكارولين. !

لقد ظننت أنه يريد أن يبتاع السيارة حقا. يا إلهي.. هذه صفقة منيت فيها بخسارة جديدة.. ألف جنيه تصوروا.! ألف جنيه.!

وكاد الدوق يقهقه ضاحكا حين سمع هذه الكلمات ولكنه تماسك وغادر القاعة إلى غرفة أخرى انفرد فيها بنفسه فضحك ملء هواه.

وقال مسيو مارتان يخاطب الشرطي الباربسى الشهير: أتعتقد يا جوشار أنك وقفت على ما يهديك إلى اللصوص.؟

وقبل أن يجيب انبرى مسيو فورمرى يقول: والآن ينبغي أن نتابع تحقيقنا.

وجلس إلى المكتب ووجه الحديث إلى المليونير قائلا: هل وقعت في

قصرك سرقات أخرى غير هذه.؟

– نعم.. فمنذ ثلاثة أعوام توعدني هذا النذل لوبين بأن..

ولكن قاضي التحقيق ابتدره مقاطعا بقوله: إنني أعرف كل ما يتعلق بهذا الحادث. ولكني قصدت سرقات أخرى.

– نعم.. وقعت سرقات أخرى كانت ابنتي ضحيتها.

فقالت جرمين. نعم.. فقد سرقت مني أشياء مرتين أو ثلاثة في خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة.

– ولماذا لم تبلغوا البوليس..! ولكن إلى من اتجهت ريبتكم؟ إلى فيكتوار طبعا..؟

ولكن جرمين هزت رأسها نفيا وقالت: كلا.. إن فيكتوار موضع ثقتنا التامة. هذا إلى أن السرقتين الأخيرتين وقعتا في قصر دي شارميراس في الوقت الذي كانت فيه فيكتوار موجودة في باريس.

وكان مسيو فورمرى يتمنى أن يسمع من جرمين جوابا يؤيد شبهاته فلما سمعها تنفي التهمة عن فيكتوار قطب جبينه وقال:

– ومتى وقعت أول سرقة.؟

– منذ ثلاثة أعوام تقريبا.

فتروى مسيو فورمرى برهة ثم قال: ينبغي أن أعرف أسماء الخدم الذين التحقوا بخدمتكم قبل السرقة الأولى.

– لقد استخدمنا فيكتوار منذ عام واحد.

فقال مسيو ورمرى وقد بدت نبرات اليأس في صوته:

– منذ عام واحد فقط.؟ وما هو آخر شيء سرق منك.

دبوس ماسي. وهذا طبعا بخلاف العقد اللؤلؤي الذي كاد يسرق لولا أن تنبه الدوق إلى ما حدث.

– إنني أريد أن أرى هذا العقد.. أين هو؟

فالتفتت جرمين إلى الدوق وقالت: أين العقد يا جاك؟ إنه معك طبعا.

فهز رأسه نفيا وقال: معي.! كلا.. إنه معك أنت.

فبدأ القلق في وجه جرمين وقالت.. ليس معي إلا العلبة فارغة.

فاشتدت دهشة الدوق وقال: العلبة فارغة.؟ كيف هذا.؟

– عند رجوعنا من المحطة وجدت العلبة مكانها فوق الدولاب فلما تناولتها وجدتها فارغة فظننت أنك أنت الذي أخذت العقد معك.

فقال القاضي مخاطبا الدوق: وما يدريك أن برنارد عندما أعاد العلبة إليك غافلك ونشل العقد منها وأعادها إليك فارغة.؟

فقال الدوق: وهل تحسبني غرا جاهلا حتى تجوز علي مثل الخدعة لقد فتحتها ونظرت فيها ورأيت العقد مكانه.

فقال المليونير رباه.! إذن فقد سرق العقد أيضا.

فقال الدوق: هذا بعيد الاحتمال. ولا ريب أن سونيا أو إيرما أخذته.

فقالت جرمين: لا أظن أن سونيا هي التي أخذته فقد سمعتني وأنا أسأل عن العقد.

– فلنسأل إيرما إذن.

ولما جئ بإيرما كان وجهها يدل على الخوف والهلع. قالت جرمين تخاطبها: إيرما، هل..؟

ولكن قاضي التحقيق قاطعها بقوله: عفوا يا آنسة، إنني أنا الذي أتولى التحقيق.

ثم التفت إلى إيرما وقال: لا تخافي يا آنسة إيرما. إنني أحب أن أطرح عليك سؤالا أو سؤالين.. هل أتيت معك بالعقد الذي أهداه الدوق دى شارميراس إلى الآنسة جرمين اليوم.؟

– كلا يا سيدي.. كلا يا سيدي. إنني لم آت به معي.

– أواثقة أنت من هذا.؟

طبعا يا سيدي. بل إنني لم أر هذا العقد إطلاقا. وأظن أن سيدتي قد تركته في علبة فوق الدولاب.

– وكيف عرفت هذا.؟

– هذا ما سمعته من الآنسة جرمين نفسها. ومن المحتمل أن تكون الآنسة كريتشتوف قد أودعته حقيبتها.

فانبرى الدوق يقول على عجل: وما الذي جعلك تذكرين الحقيبة بنوع خاص.؟

– أعني أنها ربما أودعته حقيبتها لكي تأتي به إلى باريس.

وكان جوشار حتى هذه اللحظة منزويا في أحد الأركان يرقب ما يجرى وقد بدت عليه أمارات السآمة. ولكنه بغتة هذا الملال وتألقت عيناه اهتماما انبرى يقول:

– وما الذي يجعلك تميلين إلى هذا الظن.؟

– لا شيء.. ولكني رأيت الآنسة كريتشنوف تقف إلى جانب الدولاب الموضوع فوقه العقد فظننت أنها ستأخذه.

فقال القاضي: وهل كان العقد إذ ذاك فوق الدولاب؟

فأحنت إيرما رأسها وقالت: نعم.

وبعد سكتة قصيرة قال القاضي: كم مضى عليك في خدمة مسيو جورناى مارتان.؟

- ستة شهور يا سيدي.

- شكرا لك.. يمكنك أن تنصرفي.

فغادرت الغرفة وقد تبدد قلقها وبدت عليها دلائل الارتياح.

وقال القاضي: والآن لابد من استجواب الآنسة كريتشنوف.

فانبرى الدوق يقول: إن الآنسة كريتشنوف فوق المظان والريب.

وابتدرته جرمين بقولها: طبعا.. طبعا..

فقال جوشار: كم مضى عليها في خدمتكم.؟

فسكتت جرمين هنيهة مفكرة ثم قالت: ثلاثة أعوام.

فقال القاضي: أي منذ العهد الذي وقع فيه السرقات؟

نعم.

فالتفت القاضي إلى المفتش وقال: ادع الآنسة كريتشنوف.

فقال الدوق وهو يسير إلى الباب مسرعا:

- إنني أعرف مكانها وسأبعث بها إليكم.

ولكن جوشار ابتدره قائلا:

عفوا يا سمو الدوق. إن المفتش هو الذي سيتولى دعوتها.

فتحول إليه الدوق وقال في غضب: ولكن هل تريد أن...

فابتدره جوشار معتذرا. أرجوك أن لا تغضب يا سيدي الدوق.. فإن مسيو فورمرى يشاطر هذا الرأي..

فقال القاضي: طبعا.. طبعا.. فإن لنا طريقة معينة في استدعاء الشهود ولا أحب أن نعدل عنها.

فهز الدوق كتفيه في استخفاف وقال: فليكن إذن ما تريدون.

وارتد إلى مكانه وهو يسير في غير اكتراث.

وبعد قليل رجع المفتش وأنبأ الحاضرين أن الآنسة كريتشنوف ستحضر بعد لحظات. وقال معقبا. لقد كانت تهم بالخروج.

فصاح مسيو فورمرى في استغراب: تهم بالخروج.؟ أمعنى ذلك أنك جعلت الخروج مباحا لمن شاء.؟

– كلا يا سيدي بالطبع.. ولكني أعني أنها كانت تسأل عما إذا كان خروجها ممنوعا.

وأشار القاضي إلى المفتش بالدنو منه وهمس في أذنه

– اصعد إلى غرفتها خلسة وفتش حقائبها.

فهمس جوشار في صوت خافت: لا داعي لذلك.

فقال مسيو فورمرى مرددا مخاطبا المفتش: نعم.. لا داعي لذلك.. لا داعي لذلك مطلقا.

وفتح الباب في هذه اللحظة ودخلت سونيا وكانت لا تزال تحمل معطف السفر على ذراعها.

دارت ببصرها في أرجاء القاعة وقد نمت نظراتها عن الدهش. واستقرت عينا الدوق على وجهها.. ولم تكن نظرته إليها عادية. بل كانت متفرسة نفاذة كأنما تريد أن يستشف ما يدور في أعماق نفسها.. ولما التقت عيونهما غضت سونيا من بصرها.

وقال مسيو فورمرى يخاطبها: إنني أريد أن أطرح عليك بضعة أسئلة.

ولكن جوشار انبرى يقول: أتسمح لي يا سيدي القاضي بأن أتولى استجوابها بنفسي؟

ونظر إليه القاضي دهشا. ولكن شيئا في عينى جوشار جعله يلبي هذه الرغبة بلا تردد.

وقال جوشار يخاطبها: هل رأيت العقد الذي أهداه الدوق شارميراس بالأمس إلى الآنسة جرمين؟

- نعم رأيته.

- وهل عرفت أن هذا العقد قد سرق.؟

- سرق.؟ أمتأكد أنت من أنه سرق.؟

وكان صوتها ناطقا بالدهشة والقلق.

- نعم سرق.. وبعد أن استعرضنا ظروف هذه السرقة اتفق رأينا على أن السارق أراد أن ينفي عن نفسه الشبهات ودس العقد في حقيبة شخص من أهل الدار.

فقالت سونيا: إن حقيبتي في مخدعي فلنفتشها. وهاك المفتاح.

ووضعت معطفها على حافة المقعد لتخرج المفتاح من حقيبة يدها. ولكن المعطف انزلق فسقط على الأرض عند قدمي الدوق. فأسرع وانحنى ليرفعه.

ولقد كان الدوق طيلة الوقت يتفرس في سونيا ويحدجها بهذه النظرة النفاذة الفاحصة. وقد قرأ في عينها ما رابه وانكشفت له طوايا نفسها. فلما مال إلى الأرض ليتناول المعطف دس أصابعه في خفة في أحد الجيوب فانطبقت على شيء ملفوف في ورقة. ثم أخرج هذا الشيء ودسه في جيبه.

ولم يفطن أحد إلى ما حدث إذ كان الحاضرين جميعا ينظرون إلى سونيا وهي تخرج المفتاح من حقيبتها. كما أن الدوق حرص على أن يتخذ من مسند المقعد ومن المعطف أيضا سترا يخفي وراءه ما فعل.

وقدمت سونيا المفتاح إلى جوشار. ولكنه أجابها بقوله:

لا داعي لتفتيش حقيبتك. فهل لديك شيء آخر يمكن أن نفتشه.؟

ولما ظلت صامتة قال جوشار مسترسلا. أكان في نيتك الخروج الآن؟

– نعم.. لأشتري بعض ما أنا في حاجة إليه.

فقال جوشار مخاطبا القاضي: أظن أنه لا مانع لديك يا سيدي الآن من خروج الآنسة سونيا.؟

– كلا.. لا مانع لدى. فلتخرج إن شاءت.

وهمت سونيا بالانصراف ولكن جوشار ابتدرها بقوله:

– لحظة واحدة. أتسمحين لي أن أرى ما في حقيبة يدك هذه؟.

– ليس فيها سوى منديل ونقودي.

ومدت إليه يدها بالحقيبة وقد فتحتها فاكتفى جوشار بأن ألقى عليها نظرة سريعة وقال: لا أظن أن الجرأة ستبلغ بالسارق هذا الحد.

وسارت سونيا إلى الباب ثم تحولت إلى المقعد الذي وضعت فوقه

معطفها وهمت بأن تتناوله.

وفي هذه اللحظة تألقت عينا جوشار ببريق الانتصار. وفي وثبة واحدة كان عند الباب وهو يقول: اسمحي لي.

فوقع في روعها أنه سيعينها على ارتداء المعطف فقالت:

- شكرا.. إنني لن أرتديه الآن.

فأسرع يقول: نرى هل فتشت جيوب معطفك.؟ إن من الجائز جدا أن يكون السارق قد اتخذه مخبأ للعقد.؟ هذا الجيب مثلا. إني أراه منتفخا أكثر مما ينبغي.

وأشار إلى الجيب الذي كانت فيه اللفافة التي نشلها الدوق سرا.

وارتدت سونيا إلى الوراء وقد نطقت عيناها بالرعب. ودارت ببصرها في الغرفة كأنما تنشد مهربا.. وصاحت في صوت مبحوح:

- ما هذا.؟ كأني بك تشتبه في.!؟

وأطبقت بيدها على الجيب كأنما تريد أن تحول دون تفتيشه.

وقال جوشار: معذرة يا سيدتي.. في بعض الأحيان قد نشتبه في جميع الناس.

وتدخل الدوق فقال في صوت لطيف النبرات:

– لا داعي للاعتراض يا آنسة سونيا: هذه مجرد شكليات لابد منها.

فقالت سونيا في اضطراب: ولكن.. ولكن..

ونظرت إلى الدوق متوسلة مستنجدة.. فقال هذا في بطء وفي صوت واضح المعالم: ليس هناك ما يدعو إلى إثاره خوفك.

وفي يأس ناولت سونيا المعطف إلى جوشار. وأسرع هذا فدس يده في الجيب المنتفخ وهو يبتسم زهوا وانتصارا ولكنه ما لبث أن أخرجها فارغة وهو يغمغم في يأس:

– لا شيء.! لا شيء.! إنى أسألك المعذرة يا سيدتي.

وأعاد إليها معطفها فسارت إلى الباب ولكنها ترنحت قليلا فخف إليها الدوق وأسندها وهو يقول في صوت رقيق:

– هل سيغمى عليك.؟

– كلا.. شكرا لك.

ثم همست: لقد أنقذتني في الوقت المناسب.

ثم غادرت الغرفة. فالتفت مسيو فورمرى إلى جوشار وقال:

– إنك ارتكبت غلطة شنيعة يا جوشار.

فلم يحاول جوشار أن يدافع عن فعلته وإنما قال:

- هل شددت الأمر بمنع أي شخص من الخروج؟

- نعم.. ماعدا سونيا طبعا..

- بل إنى أريد أن أمنع سونيا بنوع خاص من الخروج فقال مسيو فورمرى متهكا: الحق أن أمرك عجيب يا جوشار.! منذ لحظات تطلب إلى أن أخلى سبيلها. والآن تسألني أن أمنعها من الخروج.؟ ألعلك تعتقد أن سونيا هي أرسين لوبين متنكرا.؟

فضحك جوشار وقال: لا أكتمك أنها نكتة لطيفة.؟

وغادر الجميع القاعة ليشرعوا في تفتيش البيت. وتخلف عنهم الدوق وأوصد على نفسه باب القاعة. ثم أخرج من جيبه اللفافة التي أخذها من جيب سونيا. وإذ فضها بدأ العقد متألقا أمام عينيه.!

الفصل الثالث عشر

هز الدوق رأسه في حزن وأسى وهو ينظر إلى العقد وقال يخاطب نفسه في صوت ا لمحزون: هنا غريب . . !

وجعل ينظر إلى الحديقة ساهما شاردا . .

وفتح الباب ودخلت سونيا وهي شاحبة الوجه. واقتربت من الدوق وقالت في صوت مبحوح النبرات.

– اغفر لي زلتي..! اصفح عني.!

فقال الدوق في صوت متهدج: ولكن كيف هذا.؟ هل أنت سارقة..؟

وتنهدت سونيا في حزن فقال الدوق وهو ينظر إلى باب القاعة:

– يجب أن تنصرفي..!

فاشتد اضطرابها في حزن: رباه.! هذا ما كنت أتوقع..! أنك

شمقت بعد الآن أن توجه إلى الحديث.

– إن جوشار كثير الشكوك. وليس من الحكمة أن نتبادل الحديث هنا.

– ولكنك الآن تحتقرني بلا شك.

فقال الدوق في انزعاج: خفضي صوتك..! إن جوشار بالمرصاد.!

فصاحت في يأس: وما يعنيني من ذلك بعد أن فقدت الشخص الوحيد الذي كان يعطف علي.! إن الحياة عندي الآن تافهة لا قيمة لها.

فقال الدوق: إن من الحكمة أن نتبادل الحديث في غير هذا المكان.

فصاحت في انفعال. كلا.. كلا.. بل يجب أن أتكلم هنا.. فورا. يجب أن تعرف الحقيقة.؟ كل شيء. يا إلهي.! ماذا أقول.! إنها إنها جرمين إنها تقتني كل شيء.. المال. والهناء. بالأمس رأيتك تهديها هذا العقد أمامي وقد رأيتها فرحة. هانئة.. سعيدة.! ولهذا سرقت العقد.! أنا أيضا أريد أن أكون مثلها.. أريد أن أكون فرحة.. سعيدة.! إني محرومة من كل شيء.! أفي هذا عدل وإنصاف.؟ إنني أبغضها.! إنني أمقتها.!

وكانت سونيا ترتعد وهي تردد هذه الكلمات في صوت متهدج.

وقال الدوق يخاطبها: سونيا.! ماذا دهاك.!

فصاحت في بأس: نعم.! إنني أكره جرمين.! طبعا كان ينبغي أن

أكتم عنك هذا لأنك خطيبها.. ولكني عجزت.. أنت السبب في كل هذا أنت الرجل الذي.. أنت الرجل الذي...

ولكنها أمسكت ولم تتم جملتها.. وكان الدوق من الذكاء بحيث أدرك أنها تريد أن تقول: «أنت الرجل الذي أحبه)).

وربت على ذراعها في رفق وقال: سونيا.

ولكنها قاطعته بقولها: إنني أعلم أن ذنبي لا يغتفر.! فاعلم إذن أن هذه ليست أول سرقة ارتكبتها.. إنها السرقة العاشرة..! نعم العاشرة.! ولكنني أريد منك أن تؤمن شيء واحد.! نعم.! أرجوك أن تصدق أن منذ رأيتك.. منذ.. منذ عرفتك.. أقلعت عن السرقة.. ولكني لم أتماسك بالأمس.. حين رأيتك تهديها القلادة فقدت صوابي ولم تعد لي سيطرة على أعصابي وإرادتي.

فقال الدوق في صوت رقيق: إنني أعلم يا سونيا أنك صادقة فيما تقولين.

فتنفست الصعداء وقالت: إنني أعلم أنك تشفق على ولكنك في الوقت ذاته تحتقرني.. نعم إنك تحتقرني.

– أنت مخطئة في هذا.؟ إنني لا أحتقرك. وإني أفهم تلك البواعث التي دفعتك إلى ما فعلت.

فصاحت سونيا في انفعال: اسمع.. ألم تعذبك الوحدة يوما في

حياتك.؟ هل جربت الجوع.؟ هل كابدت البؤس عندما جئت يوما إلى هذه المدينة العظيمة فتعذبت.. وكابدت الحرمان وقاسيت.! ذقت الفقر.. والحرمان والجوع.. والوحدة. انظر في واجهات الحوانيت فأرى أمامي الخبز واللحم. ومع ذلك لا أستطيع أن أمد إليه يدا وإلا سجنت!

وفي أحد الأيام كاد الجوع يقتلني.. وكنت أرى الخبز أمامي فلا أمسه.! وخرجت أطوف الشوارع والطرقات هائمة على وجهي والجوع يمزق أحشائي.. وقد كدت أفقد الوعي.

وفي الطريق لقيت رجلا يبحث عن امرأة يمضي معها سهرته. فذهبت في رفقته..!

وأمسكت عن الحديث وقد احمر وجهها. فقال الدوق: استمري.

– وقدم إلى الرجل طعاما وخمرا. وأسعدني أن آكل ما تشتهيه نفسي ولما أراد أن يعانقني ثار اشمئزازي واستولى على الذعر ودفعته عن صدري فسقط على الأرض مغمى عليه لشدة سكره... فاغتنمت الفرصة وسرقت نقوده وفررت هاربة..!

نعم.. لقد آثرت السجن على أن أجود بعرضي.! وهكذا رحت أسرق كلما مزق الجوع أحشائي.! لقد سرقت لأظل امرأة شريفة.!

ثم هزت كتفيها في يأس وقالت: أنا الآن حت أسرق لأصبح جميلة

رحت أسرق لأتحلى بالجواهر.!

فقال الدوق في صوت رقيق: يا لك من طفلة مسكينة. فانفجرت سونيا تبكي وقالت في صوت يفيض حزنا: إنك طبعا لا تفهم ما أقول لأنك لم تكابد هذه الحياة التي أقصها عليك. حياة الجوع والحرمان.

فنظر إليها في عطف عميق وقال: يا عزيزتي سونيا. اعلمي أنني فهمت. وصفحت.!

وسرى عنها ومسحت عبراتها وابتسمت من خلال دموعها.

واقترب منها الدوق وأراد أن يأخذ بيدها بين كفيه. ولكنه سمع حركة ناحية الباب فقال همسا: جففي عبراتك. وقع أقدام عند الباب.!

وما كادت تفعل حتى دخل جوشار فسار نحوهما وهو ينقل نظراته بينهما في استغراب. فابتدره الدوق لكي يقطع عليه خواطره بقوله: أرجو أن لا يكون اللصوص قد ظفروا بالتاج يا مسيو جوشار.؟

- لقد وجدناه في مكانه يا صاحب السمو.

- وهدايا العرس.؟

- لم يمسها سوء أيضا.

- هذا من حسن الحظ.

والتفت جوشار إلى سونيا وقال: كنت أبحث عنك يا سيدتي لأبلغك أن مسيو فورمرى عاد فحظر عليك الخروج. إن الخروج محظور على الجميع.

فقالت سونيا في غير اكتراث: حقا؟

– ويجب أن تلزمي غرفتك لاتبرحيها. وسيرسل إليك الطعام فيها.

فصاحت في ذعر: ماذا تقول.؟

وراحت تنظر إلى الدوق فابتسم لها في عطف فقالت:

– حسنا.. سألزم غرفتي.

ولما انصرفت قال الدوق مخاطبا جوشار:

– هذه قسوة منكم.! إنها لا تعدو أن تكون طفله.

– إنني أسف يا سيدي الدوق. ولكن واجبي يحتم علي أن أتخذ كل حيطة ممكنة.

– هذا شأنك طبعا. ولكنك كدت تقتلها رعبا.

وانصرف جوشار على حين أشعل الدوق سيجارة ومضى يدخن.

وفتح الباب في عنف ودخل مسيو جورناى مارتان وهو يصيح في غضب: انظروا. انظروا.! هذه برقية من لوبين. برقية من هذا الوغد!

وراح يتلو في صوت مرتفع:

«معذرة عن عدم برى بوعدي بشأن التاج. كنت مرتبط بموعد هام فلم أستطع الحضور بنفسي لكي آخذ التاج أرجوك أن تضعه الليلة في مخدعك. وسأحضر في الساعة العاشرة ليلا لكي آخذه. فإلى اللقاء – أرسين لوبين».

ولما فرغ مسيو مارتان من تلاوة البرقية قال الدوق.

– هذه دعابة سخيفة.

– دعابة.. دعابة.! إنك تصف كل شيء بأنه دعابة.

وتناول مسيو فورمرى البرقية ونظر فيها وهو يقول: بعد هذا يستحيل علينا أن نقنع جوشار بأن لابد لأرسين لوبين في هذه الحوادث. ولكني مازلت عند رأيي الأول. وهو أن أرسين لوبين ما كان ليرتد عن هذه الخزانة لاسيما وأن في داخلها مفتاح خزانة المخدع.! كلا. أيها السادة.. إن لوبين ليس هو الذي سطا على القصر بالأمس.

وتقدم من الخزانة وأدار مقبضها بضع مرات ليثبت للحاضرين أنها سليمة لم يقربها أحد.

وقال المفتش مؤمنا على عادته. هذا صحيح.!

– وهذه البرقية ليست إلا مزاحا.. فإذا كان لوبين قد عجز بالأمس عن سرقة التاج.. فهو يستطيع اليوم والمنزل غاص بالجنود.! ولكن جوشار رجل إذ تسلط عليه الوهم.

وأمسك عن الكلام بغتة.. واتسعت حدقتاه دهشة ورعبا. فقد رأى باب الخزانة يفتح من تلقاء نفسه.. ثم رأى جوشار يخرج من داخلها.!

وصاح مسيو فورمرى وهو لا يصدق ما ترى عيناه: ما هذا.؟ ما هذا.؟

فابتسم جوشار وقال: لقد كنت أظن أن جدران هذه الخزانة من السمك بحيث يحول دون سماع الصوت ولكني سمعت كل حديثك وأنا في داخلها.

– ولكن كيف دخلت فيها.؟

– وهل تعتقد أن دخولها عسير إلى هذا الحد.؟

فصاح مسيو فورمرى وهو أشبه بالمجانين:

– ولكن كيف استطعت أن تدخل فيها.؟

فأشار جوشار بأصبعه وقال: أترى هذا الباب لقد وضعت الخزانة أمامه لتسده وتحجبه عن الأنظار.. فما كان مني إلا أن فتحت هذا

الباب ودخلت إلى الخزانة.

فصاح مسيو فورمرى. ماذا تعني.؟ أهذا من المزاح؟

إنني لا أمزح.. ولكن اللصوص نزعوا ظهر الخزانة نزعا.. نعم. إن للخزانة الآن بابا وسقفا وجدارين.. ولكن ليس لها ظهر.! هناك خزائن ذات ظهر غير متين. ولهذا جرت العادة بأن تسند الخزائن إلى الجدران وليس إلى الأبواب! وقد فتح اللصوص الباب المسند إليه الخزانة فبان لهم ظهرها فانتزعوه من مكانه وحطموه.

فصاح المليونير: والمفتاح.؟ أين مفتاح خزانة المخدع؟

فابتسم جوشار وقال: إنني لم أجد المفتاح ولكنني وجدت ما هو خير منه.

- ماذا وجدت.؟

فابتسم جوشار وقال في صوت هادئ. وجدت بطاقة أرسين لوبين.

الفصل الرابع عشر

كانت نظرة الحاضرين إلى البطاقة تدل على الدهش عدا مسيو فورمرى الذي نمت نظراته على الاستخفاف. وقال: هذه البطاقة ما وضعت هنا لتضليلنا..! انها لا يمكن أن تتخذ دليلا على شيء.

فقال جوشار في هدوء: طبعا. إنها ليست دليلا على شيء.

فصاح مسيو مارتان: وهل نسيتم البرقية التي توعدني فيها بسرقة التاج.

فقال مسيو فورمرى: لن يسرق التاج يا سيدي فسنتخذ كل حيطة ممكنة.

ودخل الخادم يدعوهم إلى الطعام فقال مسيو فورمرى:

وإذا ما فرغنا منه استجوبنا الآنسة سونيا عن السرقات القديمة.

فقال الدوق: وما شأنها هي بهذه السرقات؟

– هذا رأيي يا سيدي الدوق. ولكن جوشار يصر على استجوابها.

- الحق أنكم أثرتم رعبها بلا داع.

- ثق يا سيدي أنني سأكون رقيقا في استجوابها.

ولما فرغوا من الطعام أسرع جوشار بمغادرة القاعة.. فمضى الدوق في أثره وقال له: يسرني يا مسيو جوشار أن أتابع أبحاثك.

فقال جوشار: يسرني أن أرى منك هذه العناية يا سيدي الدوق.

ودخلا إلى قاعة الاستقبال. وأغلق جوشار الباب وهو يقول: أرجو أن لا يزعجنا مسيو فورمرى بالقدوم عاجلا حتى أفرغ من بحث مسألة مازالت غامضة على.. نعم.. أريد أن أعرف كيف أخرج اللصوص المسروقات من البيت؟

فأشار الدوق إلى النافذة وقال: أظن أنكم اتفقتم على أنهم دخلوا وخرجوا بواسطة هذه النافذة.

فهز جوشار رأسه نفيا وقال: هذه نظرية سخيفة أدلى بها مسيو فورمرى. أما أنا فأعتقد أن هذا السلم ما أسند إلى النافذة إلا على سبيل التضليل ولم يستعمله اللصوص لا في دخولهم ولا في خروجهم.

إذن ما رأيك في طابع القدم الملوث بالحبر والذي كان هذا الكتاب يخفيه تحته..؟

فابتسم جوشار وقال: أثر مزيف.. إنني أعتقد أن أحد اللصوص جلس على هذا المقعد ولوث حذاءه بالجير ثم داس على الأرض. وبعد ذلك مسح عن حذائه الجير ووضع الكتاب عمدا فوق الأثر حتى لا يمحى ويظل باقيا إلى حين حضوري.

فقال الدوق في استغراب: هذا رأي غريب..! ولكن كيف خطرت لك هذه النظرية.؟

- الأمر بسيط جدا. إن المسروقات ثقيلة ولا يمكن نقلها إلا بواسطة عدد كبير من اللصوص. فإذا كانوا قد جاءوا عن طريق العمارة وتلوثت أحذيتهم بالجير. فلا ريب أن ذرات الجير ستظل عالقة بالبساط مهما حاولوا أن يزيلوها ويكنسوها. وقد فحصت البساط بواسطة عدستي المكبرة فلم أجد به أي أثر للجير. وهذا دليل على أن طابع القدم صنع عمدا وترك عمدا ليضلل قاضي التحقيق.

فهز الدوق رأسه وقال: هذا رأي معقول جدا.

- والآن نعود إلى أسألتنا الأولى: كيف أخرج اللصوص المسروقات من البيت. بطبيعة الحال لم يستعملوا السلم الخشبي كما ذكرت. ولم يستعملوا سلم البيت والباب العمومي وإلا كان من المحقق أن يسمع البواب جلبتهم عند الدخول والخروج. هذا إلى أن المارة لا يكادون

يقطعون من الطريق العام لحظة واحدة. فإذا ما رأوا المركبة والمنقولات بادروا إلى إخطار البوليس لأنهم يعلمون أن هذا البيت خال فليس لدينا بعد ذلك إلا منفذ واحد.

فصاح الدوق: أتقصد مدخنة المدفأة.؟

– تماما..! والشيء الذي يحيرني هو إلقاء فيكتوار أمام مدخل المدفأة.. والباعث الذي حمل اللصوص على تخديرها..؟ من المحتمل جدا أنهم أرادوا أن يضللوا قاضي التحقيق كما أن من المحتمل أنهم أرادوا أن ينبهوني إلى الطريق الذي سلكوه.

فبدت دلائل الدهشة في وجه الدوق وقال: أرادوا أن ينبهوك..؟ ماذا تعني.؟

– أعني أن هذا هو أسلوب أرسين لوبين في معاملتي.. إن هذا الرجل – على العداوة المستحكمة بيننا – يحبني ويحب أن يداعبني. ولذلك تراه يترك وراءه آثارا مضللة يعلم أنها كفيلة بأن تخدع مسيو فورمرى وأمثاله من البسطاء ولكن في الوقت ذاته يترك آثارا أخرى حقيقية وهو يعلم أن مسيو فورمرى لن يدرك خطورتها ولا دلالتها. ولكنه يتعمد أن يتركها خصيصا لأجلي لأنه يعرف أنني سأتبين مرماها. ومن هذه الآثار الحقيقية مسألة فيكتوار ووضعها أمام المدخنة.. والآن

هيا بنا نفحص المدخنة.

وتقدم جوشار إلى المدخنة ونظر في داخلها ثم قال:

– إنها أعلى مما كنت أعتقد، إن ارتفاعها أكثر من ثلاثة أمتار.

وكانت المدخنة مبنية داخل الجدار وعرضها نحو ثماني أقدام. فأتى جوشار بسلم خشبي وضعه داخلها وارتقاه. وقد أضاء مصباحه الكهربائي.. فلاحت له في داخل المدخنة فجوة كبيرة تسدها قوالب من الحجارة رصت في غير عناية فقال: إنني سأزيل هذه القوالب لأفتح الفجوة مرة أخرى.. فأرجوك يا دوق أن تتنحي قليلا خشية أن تسقط فوقك.

وراح جوشار يرفع الحجارة قالبا بعد قالب حتى انكشفت عن الثغرة التي أحدثها اللصوص في الجدار الذي يفصل قصر مسيو مارتان عن البيت المجاور. ثم وثب إلى داخل هذا البيت وهو ينادي الدوق بأن يتبعه.

وقال الدوق وقد وثب خلفه إلى البيت المجاور: يا لها من حيلة تدل على الدهاء.!

فقال جوشار: ليست هذه أول مرة يعمد اللصوص إلى مثل هذه الحيلة. فإنهم عندما ينوون السطو على أحد الجواهرجية يستأجرون

دكانا مجاورا أو مسكنا فوق المتجر ثم يثقبون الجدار أو الأرضية وينفذون منها إلى محل الجواهرجي.

ثم ضرب كفا بكف وقال: آه.. لقد ارتكبت غلطة.. كان ينبغي أن أكون حذرا وأنا أزيل هذه الحجارة من مكانها حتى لا أفسد ما بها من آثار.

وأخذ من جديد يضعها على الأرض بعناية والدوق يساعده. فلما انتهى من ذلك عثر تحتها على قطعة من إطار احدى الصور فقال: هذا الأثر قرينة تدعم نظريتي في أن المسروقات نقلت بهذه الطريقة.

فصاح الدوق: وما يدريك أننا قد نجد المسروقات مازالت في هذا البيت.

لا أظن ذلك.. فإن لوبين يعرف أنني أنا الذي سأتولى هذه القضية أو زميلي جانيمار. وإن من المؤكد أننا سنكتشف هذا الطريق السري فمحال أن يبقى المسروقات في الدار.

وطاف بغرف البيت ثم هبط السلم. وانحنى جوشار فتناول باقة صغيرة من الزهر كانت ملقاه على السلم وقال:

– أزهار نضيرة.. لا ريب أنها قطفت حديثا.

فقال الدوق: إنها أزهار السليفيا.

– نعم.. أزهار السليفيا القرمزية وليس في فرنسا كلها من استطاع أن ينبت هذا النوع غير بستاني واحد.. هو ذلك الذي يستخدمه مسيو جورناى مارتان.

فقال الدوق: هذا يثبت أن اللصوص حضروا من قصر دي شارميراس.

– هذا ما توحى به الظواهر.

– لا ريب إذن أن هؤلاء اللصوص هم كارولیه وأبناؤه فقد كانوا في الحديقة يتفرجون على السيارة.

فلم يرد جوشار عن أن قال. ربما.

وأخرج الدوق علبة سجائره وتناول سيجارة منها وهو يقول:

– هذه الأبحاث لذيذة جديدة... ظلام دامس ثم تبدأ الآثار تنكشف لك وتنير الطريق المظلم.. ما ألذ مهنتك.!

هل لك في التدخين.؟

– ما نوعها.؟ كابورال.؟

– كلا.. ميرسيه. ميرسيه.

– شكرا.

وأشعل جوشار سيجارته واستطرد الدوق: إنك شرطي بارع يا

مسيو جوشار. ففي خلال ربع ساعة استطعت أن تكشف أشياء لها خطورتها فعرفت مثلا أن اللصوص أتوا من دى شاميراس. وأنهم كارولیه وأبناؤه. وأنهم دخلوا القصر من هذا البيت، وأخرجوا المسروقات من نفس الطريق.

فقال جوشار: إنني لا أشك في أنهم نقلوا المسروقات من خلال هذه الفجوة. ولكني أستبعد دخولهم إلى القصر من خلال الفجوة أيضا.. وأعتقد أنهم دخلوا من الباب العمومي للقصر ذاته.

فقال الدوق: أصبت فقد كدت أنسى حلقة المفاتيح التي سرقوها من دى شارميراس.

– ولقد أخبرني البواب أنه ثبت المزاليج خلف الباب فمن الذي رفعها إذن.؟

فقال الدوق: لا ريب أن لهم شركاء داخل البيت نفسه.

فابتسم جوشار وقال: هذا لا ريب فيه... وسموكم فيما أرى بارع في الاستنتاج. فلا يعوزك إلا القليل من المران لكي تصبح منافسا خطرا لنا. والآن هيا بنا نرجع إلى القصر من نفس الطريق.

وحين وثبوا إلى القاعة من خلال المدخنة سمعوا طرقات عنيفة على الباب وصوت مسيو فورمرى وهو يصيح:

- جوشار.. ماذا تفعل؟ افتح الباب.! لماذا لا تجيب.. افتح الباب.

وأسرع جوشار يفتح الباب فدخل مسيو فورمرى وهو يرغي ويزبد ويقول: أين كنت.؟

فلم يزد جوشار على أن قال في هدوء: كنت أتعقب الأثر الحقيقي.!

الفصل الخامس عشر

قال مسيو فورمرى في استخراب: الأثر الحقيقي. ! ماذا تعني. ؟

– تعال معي لأريك.

وأدخله في المدخنة وأراه الفجوة ثم هبط به في البيت المجاور.

أما الدوق دى شاميراس فمضى إلى مخدع مسيو مارتان فوجده راقدا على فراشه. واليأس باد في وجهه.. وما رآه المليونير حتى هتف به:

– هذه هي الضربة الساحقة. لقد سرق مني التاج أيضا.

فصاح الدوق في دهش: ماذا تقول.؟ هل سرقوا التاج؟

– إنه لم يسرق حتى الآن.. ولكن لا ريب أنه سيسرق فإن أرسين لوبين لا يخلف وعده.. إنه مازال حتى الآن في هذه الخزانة. ولكني

أعرف مصيره المحتوم.

فابتسم الدوق وقال: مادام في هذه الخزانة فلن يجسر لوبين على سرقته ولكن أموقن أنت من أنه في هذه الخزانة حقا..؟

- طبعا.. وهاك المفتاح فانظر بنفسك؟

وفتح الدوق الخزانة فرأى العلبة الجلدية التي في داخلها التاج. فنظر إلى المليونير فوجده مغمضا عينيه إعياء ففتح العلبة وأخرج منها التاج وفحصه في عناية وإعجاب. ثم أعاده مكانه. والتفت إلى المليونير وقال:

- إنني أعتقد أنه خير لهذه التيجان الأثرية أن تعاد صياغتها على الطريقة العصرية فهذه اللؤلؤة مثلا نادرة. ولكن طريقة قطعها وصقلها يفسدان جمالها.

فقال المليونير: إن من الغباوة تغيير معالم هذه التحف الأثرية. وألا فقدت قيمتها التاريخية.

- ولكنها بذلك تزداد جمالا.

- ربما.. ولكن صدقني إن لك آراء جنونية في بعض الأحيان.!

وأعاد الدوق العلبة إلى مكانها في الخزانة وأغلقها ورد المفتاح إلى صاحبه ثم وقف في النافذة برهة وهو يصفر لحنا خافتا.

وبعد فترة وجيزة قال: إني خارج لأبدل ثيابي إذ لا يسعني أن أبقى طيلة النهار في ثوب قيادة السيارات.

فانتصب مسيو مارتان جالسا في فراشه وهو يصيح: بالله عليك لا تبتعد عني في هذا الوقت الحرج.

– ولكن جوشار قائم إلى جوارك يحرسك مع نفر من أبرع رجاله.! ومع ذلك فلن أتغيب أكثر من نصف ساعة. أبرع رجاله.!

ثم زايل الغرفة فلما بلغ الباب الخارجي اعترض الشرطي طريقه. وقال: هل معك يا سيدي تصريح بالخروج من مسيو جوشار.

فقال الدوق في غضب:

– وما شأني أنا بجوشار.! إنني الدوق دى شارميراس فبانت الحيرة في وجه الشرطي. وقال: هذه أوامر مسيو فورمرى يا صاحب السمو.

فقال الدوق في استخفاف: أوامر مسيو فورمرى.؟ أرجوك إذن أن تستدعي إحدى سيارات التاكسي.

وأسرع البواب يدعو تاكسيا. وبعد أقل من ساعة رجع الدوق ثانية إلى القصر وقد أبدل ثيابه.

وعند عودته وجد جوشار وفورمرى في قاعة الاستقبال فراح

القاضي يحدثه بآرائه في هذه القضية. والدوق شارد الذهن إذ كان يفكر في سونيا وما يمكن أن يسفر عنه الموقف حين يستجوبها جوشار.. إذ كان يخشى أن يستدرجها جوشار فتعترف بسرقاتها القديمة.

واتصل جوشار تليفونيا بقصر دى شارميراس وقال:

– قصر دى شارميراس.. حسنا.. أريد أن أخاطب البستاني. خرج متي يعود.؟ إذا رجع فاطلبوا إليه أن يتصل بقصر مسيو مارتان في باريس إنني المفتش جوشار.

ورد جوشار سماعة التليفون مكانها. ثم التفت إلى مفتش البوليس وقال: ما الذي قرره الطبيب بشأن فيكتوار.؟

– لقد قرر أنها لن تستفيق من أثر المخدر إلا في نحو الساعة العاشرة.

فقال جوشار: يمكننا الآن أن نستجوب سونيا.

فقال الدوق: ما هذا الاهتمام العجيب بهذه الطفلة المسكينة.

فقال قاضي التحقيق: وهذا رأيي أنا أيضا يا سيدي الدوق.

فقال جوشار: أما أنا فعلى النقيض أعلق على استجوابها أهمية كبيرة فأرجوك أن تستدعيها يا حضرة المفتش.

ولما انصرف المفتش نظر جوشار إلى الدوق في ارتباك وقال:

- أظن أنه يحسن بنا أن نستجوبها على انفراد.

فبانت الحيرة في وجه مسيو فورمرى وحك ذقنه بيده وقال:

- آه. طبعا على انفراد.

فنهض الدوق واقفا وقال: آه. طبعا. طبعا.

ومشى إلى الباب ولكن جوشار ناداه غير أن الدوق تجاهل هذا النداء إذ كان يعلم أن جوشار يريد أن يستبقيه حتى تحضر سونيا فيحول دون اتصاله بها خارج القاعة.

والتقى الدوق بسونيا وهي تهبط الدرج في رفقة المفتش فقال لها في عطف وحنان: لا تخافي يا آنسة سونيا. فليس مطلوبا منك إلا أن تتذكري الظروف التي لابست هذه السرقات القديمة التي وقعت في قصر دى شارميراس فكوني هادئة ولا ترتبكي.

فقالت الفتاة: إنني أشكر سموك على هذه النصيحة. ومضى الدوق إلى مخدع مسيو مارتان فلم يسمع جوابا على نقراته ففتح الباب ودخل فوجد المليونير مستغرقا في النوم فجلس بالقرب من النافذة وقد ترك الباب مواربا حتى يستطيع أن يرقب الدرج.

وبعد نصف ساعة حسبه دهرا رأى سونيا تصعد الدرج وفي رفقتها المفتش فخرج من المخدع التقى بهما على رأس الدرج وقال يخاطب الفتاة:

– أرجو أن يكون هذا الاستجواب قد مر بسلام فلم يزعجك شيء.

وكانت سونيا شاحبة مضطربة فصاحت في يأس: كان الموقف فظيعا.! قاسيا.! لقد صدقني مسيوفورمرى أما هذا الشيطان جوشار فلم يصدق حرفا مما قلت.! لقد أربكني فلم أعد أدري ما قلت.!

فقال الدوق في غضب: على أية حال انتهى كل شيء الآن. فالزمى فراشك واستردي هدوءك. وسآمر أحد الخدم بأن يحمل إليك قدحا من النبيذ.

وإذ هبط إلى القاعة وجد مسيو فورمرى يناول جوشار ورقة فرغ من كتابتها. فقرأها هذا في ارتياح ثم دسها في جيبه.

وقال الدوق في تهكم: عسى أن تكون سونيا قد أماهت لك هذا اللغز يا مسيو فورمرى.

– إننى موقن من أنها لا تعرف شيئا عن هذه الحوادث. أما جوشار فيخالفني في هذا الرأي. ولكنه مع ذلك مقتنع بأن لا صلة بينها وبين أرسين لوبين.

فقال جوشار في تؤدة: هذا ما توحي به الظواهر. ولكن من يدري.!

فقال الدوق: أتظن إذن أن لها صلة بلوبين.؟

فقال القاضي: إن جوشار كما تعلم يرى للوبين أصبعا في كل شيء.

فقال جوشار في هدوء: والسرقات القديمة!

فقال مسيو فورمرى: وما هو دليلك على صحة هذه التهمة التي توجهها إليها.! لا أنكر أن السرقات بدأت عقب التحاقها بخدمة مسيو مارتان. ولكن ما يدريك أن الأمر كان مصادفة محضة.؟ ومع ذلك فقد انقضت أعوام منذ وقعت هذه السرقات. ومن المستحيل الآن إثبات التهمة.

– والعقد الذي سرق بالأمس.؟ إنني واثق من أنه لازال موجودا في هذا القصر.

فصاح الدوق في غضب: لعنة الله على هذا العقد.؟ تمنيت والله لو أني لم أهده إلى الآنسة جرمين.

فغمغم جوشار في صوت خافت كمن يخاطب نفسه:

– لو أني قبضت على من سرق هذا العقد لأمطت اللثام عن كل أسرار هذا اللغز.

الفصل السادس عشر

بعد سكتة قصيرة قال الدوق دى شارميراس :

– مسيو فورمرى . . فقد أراد الشرطي الواقف بالباب أن يعترضني عندما أردت أن أذهب لأبدل ثيابي .

ولكني لم أحفل باعتراضه إذ لا شك أن مسيو جوشار لا يقصدني بأوامره؟.

فقال القاضي على عجل: إنه لا يقصدك طبعا.

فقال جوشار: لقد لاحظت أنك غيرت ثيابك ولكني ظننت أنك فعلت هذا هنا.

– بل في بيتي.

وبعد سكتة أخرى قال الدوق إنك تعتقد يا مسيو جوشار أنه لابد أن يكون للصوص شريك داخل هذا البيت رفع لهم مزلاج الباب.

ولكن أما كان في وسعهم أن يرسلوا أحد رجالهم من خلال هذه الفجوة فيرفع المزلاج لهم.؟

فقال القاضي متهكما:

– طبعا. هذا جلي وطبيعي.

فقال جوشار:

– إنهم أحدثوا هذه الفجوة أثناء وجودهم في القصر فلو أنهم أحدثوها أثناء وجودهم في البيت لكان محتملا أن يسقط حجر داخل المدخنة فينبه البواب.

فقال مسيو فورمرى: ربما كنت على صواب.؟ ولكن ليت شعري من هم هؤلاء الشركاء؟

– عندما تستفيق فيكتوار من إغمائها سنعرف كل شيء عن هؤلاء الشركاء.

– ولكنك تعلم أن مسيو مارتان يثق بها ثقة عمياء.

– وكذلك لوبين يثق بها ثقة عمياء.

فضحك قاضي التحقيق وقال: دائما لوبين.! دائما لوبين.

وقضوا فترة طويلة وهم ينتظرون ورود تقارير رجال الشرطة الذين كانوا يتحرون عن المركبة التي نقلت المسروقات أو يبحثون عن

السيارتين المسروقتين. وأخيرا رأى مسيو جوشار أن يغادر القصر على أن يعود في منتصف الساعة الثامنة مساء إذ كان مسيو فورمرى ينوي أن يغادر القصر في تلك الساعة إذ كان على موعد هام.

ولكن مسيو جوشار لم يرجع في الموعد الذي حدده فاضطر مسيو فورمرى أن يغادر القصر إذ لم يكن يسعه أن يتخلف عن موعده.

وكان مسيو جورناى مارتان قد دعا إلى العشاء نفرا من أصحابه. ولكنه استقبلهم عابسا وراح يحدثهم عن تحفه ونفائسه التي سرقت منه وعن ذلك التاج الذي أوشك أن يسرق منه.!

وحين سمع الدوق بقدوم جوشار مضى إلى مقابلته في قاعة الاستقبال. وقال له عسى أن يكون رجالك قد عرفوا الشوارع التي سار فيها اللصوص بمسروقاتهم.

– بكل أسف لم نهتد إلى أي أثر للمركبة وذلك برغم تحرياتنا الدقيقة.

– وهل ينوي مسيو فورمرى أن يرجع الليلة.؟

– كلا.. فإننى أنا الذي سأتولى الليلة إدارة الدفة بمعونة بعض من أثق بهم من الرجال.

وجاء مساعده بونافنت في هذه اللحظة يخطره بأن فيكتوار قد استفاقت.

- أحضرها إذن.

فقال الدوق أظنك تنوي أن تستجوبها على انفراد؟

كلا.. بل يمكنك أن تحضر هذا الاستجواب إن أردت.

فقال الدوق: إن مسيو فورمرى يعتقد أن فيكتوار امرأة ساذجة.

فابتسم جوشار وقال: ليس في هذه القضية إلا شخص واحد هو الساذج.

- ومن يكون..؟

- مسيو فورمرى طبعا.

- وعاد بونافنت وفي رفقته فيكتوار التي قالت:

- لقد أبى على هذا الرجل أن أبدل ثيابي يا سيدي المفتش.! يا لهؤلاء الوحوش..! لقد أوثقوني منذ ساعات ونشقوني المخدر.. إنهم وحوش ذوو وجوه قبيحة.

- وكم كان عددهم يا مدام فيكتوار..؟

عشرات! عشرات! كان البيت مملوءا بهم. لقد سمعت حركة في هذا الطابق فلما هبطت أتبين ما حدث انقض علي أحدهم وكان يخنقني.

فقال جوشار: صدقت.. إنهم وحوش ذوو وجوه قبيحة..! إذن فقد رأيت وجوههم يا مدام فيكتوار؟

- كلا.. لقد كانوا مقنعين.
- إن في سقف مخدعك كوة. أليس كذلك.؟
- نعم.
- وكنت في مخدعك حين سمعت الضجة.؟
- تماما.
- وهل كانت هذه الضجة فوق السقف.؟

كلا بالطبع. بل كانت الضجة هنا.

- وطبعا نزلت لتتبيني ما حدث فانقضوا عليك وأتوا بك إلى هذه القاعة؟
- تماما.. هذا هو ما حدث.

وأين كمموك وأوثقوك.؟ في هذه القاعة أم في الردهة.؟

أمسكوني في الردهة ولكنهم أوثقوني هنا.

- وبالطبع لا يمكن أن يقوم بهذا العمل شخص واحد.؟
- كلا. وإنما هاجمني أربعة منهم.
- والباقون.؟ هل وقفوا مكتوفي الأيدي يتفرجون؟
- كلا.. بل كانوا منهمكين في العمل.
- أي عمل يا ترى.؟

– كانوا ينزعون الصور من فوق الجدران ويخرجون بها من النافذة ويهبطون على السلم الخشبي.

فقال جوشار: هل لك أن تصفى لي بالضبط ما حدث؟

هل كان الرجل الذي ينزع الصور من فوق الجدار يهبط بها بنفسه أم يعطيها لزميل له يقف على السلم في انتظاره؟ ففكرت فيكتوار برهة ثم قالت: كلا.. كان يهبط بها السلم بنفسه.

– أمتأكدة أنت من هذا.؟

– طبعا.. إذ ليس هناك ما يدعوني إلى الكذب عليك. ولكن وجهها كان يدل على الانزعاج.

وقال جوشار: طبعا ليس هناك ما يدعوك إلى الكذب؟ ولكن أين كنت؟

– لقد وضعوني وراء حاجز النيران.

– لا أقصد هذا. وإنما أقصد أين كنت عندما دخلوا هذه الغرفة.!

– كنت بالقرب من الباب.

– وهل كان الحاجز موضوعا إذ ذاك أمام المدفأة؟

– كلا.. بل كان موضوعا إلى يسارها.

– أيمكنك أن تحددي لي مكانه بالضبط.

فأزاحت فيكتوار الحاجز ووضعته إلى شمال المدفأة..

وقال جوشار: إن للأمر عندي أهمية كبيرة وأريد أن أعرف موضع قوائم الحاجز بالضبط.. ويحسن بنا زيادة في التأكد أن نضع علامة عند موضع كل قائمة. إنني أريد قطعة من الطباشير. أخبريني يا مدام فيكتوار.. هل من عادتك أن تخيطي الثياب أحيانا.؟

– نعم.. إنني أخيط الثياب للخادمات في أوقات فراغي.

– لا شك أن معك إذن قطعة من الطباشير.؟

– طبعا.

ودست يدها في جيبها على عجل.. ولكنها لم تلبث أن قطبت جبينها وتراجعت خطوة إلى الوراء وقد بان القلق في وجهها وقالت في تلعثم:

– طباشير.! أوه.. كلا.. ليس لدى طباشير.. لقد فرغ بالأمس كل ما كان معي.

فقال جوشار في خشونة: لا أظن ذلك يا مدام فيكتوار.. ابحثي في جيبك. إنني أعلم أنه لازالت معك قطعة من الطباشير.

فصاحت المرأة في انزعاج: كلا.. ليس معي طباشير مطلقا.. ليس معي طباشير.!

فقفز جوشار وأمسك بذراعها ثم دس يده الأخرى في جيبها وأخرج قطعة من الطباشير الأزرق وهو يقول: ما هذا؟

فاستعادت فيكتوار ثباتها وقالت: طباشير.. فهل هي جريمة أن تحمل امرأة شريفة قطعة طباشير.؟

فقال جوشار في صرامة. هذه مسألة متروك البت فيها لقاضي التحقيق.

ثم نادى مساعده بونافنت وقال له:

– عندما تصل عربة السجن أرسل فيها هذه المرأة.

فصاحت فيكتوار: ولكني بريئة لم أرتكب إثما.

– يمكنك أن تذكري هذا لقاضي التحقيق.

الفصل السابع عشر

التفت جوشار إلى الدوق بعد خروج فيكتوار وقال :

– أرأيت . ! أهذه هي المرأة البريئة الساذجة التي يحدثنا عنها مسيو فورمري . ؟

فقال الدوق: ولكني لم أفهم حكاية الطباشير.

– إنه أزرق اللون.. أي إنه من نفس النوع الذي كتب به أرسين لوبين إمضاءاته على الجدران. فإذا ذكرت خوفها وإنكارها وجود الطباشير معها كان ذلك دليلا على أن هذه الإمضاءات إنما كتبت بنفس هذا الطباشير.

هذا غريب.! فإنها في الواقع تبدو في منتهى السذاجة ولا يمكن أن يخطر بالبال أنها قد تندمج في إحدى الجرائم.

فقال جوشار: هذا لأنك لست خبيرا بأساليب أرسين لوبين يا صاحب السمو. إنه يستطيع أن يغري بمساعدته حتى الناسكات الزاهدات.

– ولكنها نذالة منه أن يستغل سذاجة هذه المرأة ويوقعها في التهلكة.

– ولكنه لا يوقع شركاءه في المهالك. فهذه المرأة أول شريكة من شريكاته وقعت بين أيدينا.

وسار جوشار عبر الغرفة وأخرج بطاقة من جيب معطفه الموضوع على المقعد وقال يخاطب الدوق:

– يمكنك أن تبرز هذه البطاقة لرجالي عند الباب إذا ما أردت الخروج يا صاحب السمو. إنها طبعا مجرد رسميات ولكني لا أحب أن أستثني أحدا من الإجراءات التي أفرضها.

وإذا ما رأى الآخرون أنك أنت أيضا تحمل تصريحا لم يكن لهم أن يتذمروا.

فقال الدوق. لا مانع لدي مادمت بذلك أقدم معونة إليك.

– شكرا لك.

ثم كتب العبارة الآتية على البطاقة قبل أن يناولها للدوق:

«يسمح للدوق دى شارميراس الخروج – جوشار» وقرع الباب ودخل مساعده الآخر ديوزى وقال:

– لقد عرفت يا سيدي أن سيارة نقل شوهدت عند باب البيت

المجاور أعني الشارع الجانبي.

– ومتى كان ذلك.؟

– فيما بين الرابعة والخامسة صباحا.

– ومن الذي رآها.؟

– الكناس. وهو يعتقد أنها زايلت مكانها في الساعة الخامسة.

– بين الرابعة والخامسة. وفي الخامسة تقريبا! إذن فقد سدوا الثغرة قبل نقل المسروقات.. هذا ما ظننت.. ألم تكتشف شيئا آخر.؟

– نعم. فبعد أن تحركت السيارة ببضع دقائق. غادر البيت رجل يرتدي الثياب الخاصة بقيادة السيارات.

فقال جوشار على عجل: الثياب الخاصة بقيادة السيارات؟!

– نعم. وقد رمى عقب سيجارته بالقرب من البيت. وقد أثار هذا الحادث استغراب الكناس. وقد التقط العقب واحتفظ به. وها هوذا.!

وتناول جوشار العقب ونظر إليه وقال: سيجارة مذهبة. من ماركة ميرسيه. عجبا.! إنك تدخن هذا النوع يا صاحب السمو.

فقال الدوق: هذا غريب جدا.

– هذه يا سيدي الدوق حلقة أخرى من الحلقات المفقودة قد تكشف

لي. لا شك أن لديك في قصر دى شارميراس كمية من هذه السجائر.؟

– طبعا ففي كل غرفة تقريبا من غرف القصر علبة من هذا النوع.

– الأمر جلى إذن.

فقال الدوق: فهمت. تريد أن تقول إن كارولیه أخذ إحدى هذه العلب؟

– بطبيعة الحال.

– لقد ظننت أن..

وأمسك عن الكلام فقال جوشار: ماذا ظننت؟

– المفهوم أن لوبين هو الذي تولى بنفسه هذه السرقة. وبما أنك وجدت أزهار السليفيا في البيت المجاور فهذا دليل على أن لوبين قد جاء من دى شارميراس.

– هذا مؤكد.

– ولوبين هو كارولیه.

– هذه مسألة أخرى.

فقال الدوق في لهجة حماسية. ولكنها مسألة مؤكدة.. أزهار السليفيا.. وعقب السيجارة..!

فابتسم جوشار وقال: هذا جائز.. ألم أقل لك يا صاحب السمو

أنك تصلح شرطيا سريا..! ومع ذلك فالأمر غير مؤكد.

-كيف تقول هذا..؟ ألم يكن لوبين بالأمس في دى شاميراس؟ أليس هو الذي دبر حادث سرقة السيارتين؟

- طبعا هو الذي دبر الحادث ولكن من المحتمل أيضا أنه لم يشترك فيه مباشرة.

- الحق أنه رجل عجيب..! صدقني إنني أتمنى أن أراه.

فقال جوشار باسما: ستراه الليلة إذن.

فصاح الدوق: الليلة؟ - نعم الليلة... عندما يأتي لسرقة تاج الأميرة دى لامبال. فقال الدوق: لا أظنه مجنونا حتى يحضر.

فابتسم جوشار وقال: إنك لا تعرف لوبين كما أعرفه أنا يا صاحب السمو.! إنه مزيج عجيب من البرود والجراءة والخطر هو الذي يفتنه ويستهويه. إنه يقذف بنفسه في النار ثم لا تحرقه! وفي خلال الأعوام العشرة الماضية كنت لا أنفك أقول لنفسي: « ها قد ظفرنا به هذه المرة.!» ولكني لا ألبث أن أجده يفلت منا.. إنه شديد الدهاء.! وهو في الوقت ذاته محب للدعابة والمزاح.! إن اللصوصية هذه ليست إلا فنا من الفنون.! ألا تبا له.!

فقال الدوق: ولكن هل تعتقد أنه سيحضر الليلة.؟

– هذا لا شك فيه.

ثم التفت إلى مساعده ديوزى وقال يسأله:

– وهل تعقب الكناس الرجل المرتدي ثياب السيارات بعد أن التقط عقب سيجارته.؟

– نعم.. لقد سار في أثره نحو مائة خطوة حتى إذا بلغ شارع سيرو جاءت سيارة فركبها.

– وما نوعها.؟

– كبيرة الحجم. ولونها أحمر غامق.

فصاح الدوق: إنها احدى السيارات المسروقة.

ولما انصرف ديوزى قال جوشار: لقد اجتمعت لدينا حتى الآن معلومات هامة.

– طبعا.. طبعا.

وبعد فترة وجيزة جاءت الخادمة إيرما تخطر الدوق بأن الآنسة كريتشنوف ترغب في التحدث إليه فقال: وأين هي؟.

في مخدعها.

– حسنا. أخبريها أنني أنتظرها في قاعة المكتبة.

فقال جوشار: أحب أن أذكر لسموكم شيئا قبل ذهابكم إلى مقابلتها وأخرج من جيبه ورقة أراها للدوق فلما قرأها هذا قطب جبينه وقال لإيرما: أخبرى الآنسة كريتشنوف إن معي زائر وأنه لن ينصرف إلا بعد عشر دقائق.. بعد عشر دقائق.. أفاهمة أنت؟

– نعم بعد عشر دقائق.

وقال جوشار مخاطبا إيرما: واسأليها أن ترتدى معطفها وقبعتها.

ولما انصرفت إيرما قال الدوق في غضب: ما معنى هذا؟. ما الذي يدعوك إلى استصدار أمر باعتقالها؟

– عندما استجوبتها اليوم كانت أجوبتها متناقضة مضطربة تثير الشكوك.

– إذن فقد عولت على اعتقالها.؟

– هذا لا مفر منه.. ومركبة السجن الآن في انتظارها لتحملها هي وفيكتوار.

فقال الدوق في شرود:

– مسكينة.. إذن فلابد من اعتقالها.!

فقال جوشار: الواقع أنى أعطف على هذه الفتاة المسكينة.. ولكني مضطر أن أؤدى واجبي.!

فهز الدوق رأسه وقال في صوت خافت كمن يخاطب نفسه:

– إنها جديرة بالشفقة.. إنها طفلة ضلت طريقها إلى الحياة.. زلت بها القدم على غير وعي منها.. المنديل الذي عثروا عليه ملقى في غرفة البيت المجاور.. كانت مسألة سخيفة.

فقال جوشار في دهش: منديل.؟ ماذا تعني؟

فقال الدوق: إنها طفلة حمقاء.

– ولكن ما الذي وجدوه في المنديل.؟ العقد.؟

– طبعا.. لقد ظننت أنك علمت بهذه المسألة يا مسيو جوشار.

كلا... إنني لم أسمع بحادث المنديل إلا منك أنت الآن.

– حقا.. لقد ظننت أن مسيو فورمرى ترك لك مذكرة.. إنك كنت غائبا عن البيت حين عثر قاضي التحقيق على المنديل.. ويظهر أنها خرجت من مخدعها خلسة ورمت المنديل في البيت المجاور.

فقال جوشار: ولكن أين المنديل.؟

– مكانه. في البيت المجاور.. لقد اكتفى مسيو فورمرى بأخذ العقد ولكنه ترك المنديل حيث كان.

فصاح جوشار: ترك المنديل.! يا للحماقة.! إنه لا يصلح قاضيا للتحقيق وإنما يجب أن يكون راعيا للأغنام.! وفي أية غرفة كان المنديل.؟

فقال الدوق: في الركن الأيسر من الغرفة اليمني من الطابق الثاني.. ولكن أية أهمية لهذا المنديل مادمت قد عولت على اعتقالها.

فصاح جوشار: إنه الدليل الذي لا ينقض.! وسأعرف كيف أحملها على الاعتراف بما فعلت.. لقد استصدرت أمرا باعتقالها ولم يكن لدى إلا مجرد شبهات. أما الآن فلدى الدليل القاطع.. إن إلقاءها المنديل في البيت المجاور دليل على أنها تعرف سر الفجوة. أو بعبارة أخرى أنها شريكة لأرسين لوبين.

فصاح الدوق في جزع: رباه.! ما أحمقني.! كيف أرشدتك هذا الدليل ضد هذه المسكينة.!

فقال جوشار:

– لقد أديت واجبك نحو الهيئة الاجتماعية يا صاحب السمو.!

ونهض جوشار واقفا وأضاء مصباحه الكهربائي وسار إلى المدفأة.

فقال له الدوق: أتحب أن أرافقك إني أعرف مكان المنديل.!

– كلا.. شكرا لك.

وما لبث جوشار حتى توارى داخل المدفأة.

وأنصت الدوق فلما سمع وقع أقدام جوشار وهو يقفز إلى البيت

المجاور أسرع إلى الباب وفتحه فرأى سونيا تهبط الدرج وقد ارتدت قبعتها ومعطفها فتظاهر بأنه يخاطب جوشار في داخل القاعة وقال:

– ها هي ذي الآنسة كريتشنوف يا مسيو جوشار. ثم أشار إليها برأسه بالدخول.

وبما أن دخلت القاعة حتى بادر إلى إغلاق الباب وقال لها همسا:

– إن الوقت ضيق يا سونيا.

– ماذا تعني يا سيدي الدوق.

– لقد صدر أمر باعتقالك.

فصاحت في جزع: يا إلهي.!

– لا تخافي.! يجب أن تغادري البيت فورا.

– ولكن كيف أستطيع ورجال الشرطة يخفرون الباب؟

– هذه عقبة يمكن تذليلها.

وأسرع فتناول بطاقة من معطف جوشار الموضوع على المقعد وكتب عليها: «يسمح للآنسة كريتشنوف بالخروج» وذيل هذه العبارة بإمضاء جوشار بعد أن زوره تزويرا متقنا محاكيا التوقيع الذي بالبطاقة التي أعطاها له جوشار.

وما فرغ الدوق من كتابة البطاقة حتى سمع حركة صادرة من ناحية المدفأة فانبعث واقفا وقد شار إلى سونيا بالصمت.. وسار إلى المدفأة وفي عينيه بريق العزم.

وانبعث من داخلها صوت جوشار يناديه: يا صاحب السمو.

– نعم... ماذا تريد.؟

إنني لم أعثر على المنديل.. أما قلت إنه في الركن الأيسر من الغرفة اليمنى بالطابق الثاني.؟

– ألم أسألك أن تدعني أرافقك.! إنه في الركن الأيمن من الغرفة اليسرى.

فقال جوشار في دهش: يخيل إلى أنك قلت الغرفة اليمنى.!

ثم سمع وقع أقدام جوشار وهو يبتعد. فرجع إلى سونيا مسرعا وصاح بها: أسرعي بالخروج.. قدمي هذه البطاقة للشرطي.

فقالت سونيا في تردد. ولكن هذه البطاقة..!

– قلت لك أسرعى ولا تضيعي الوقت.

فصاحت في اعتراض: ولكن هذا جنون.! عندما يكتشف جوشار أن هذه البطاقة..

– لا تخافي إنني أعرف كيف أنقذ نفسي.! ولكن إلى أي مكان ستذهبين.

– سأنزل بفندق صغير في ميدان ستار.. وقد غاب عني اسمه الآن.. ولكن هذه البطاقة..

– ما رقم تليفون الفندق.؟

– ٥٥٥ سنترال.

وكتب الدوق رقم التليفون على كم قميصه وهو يقول:

إذا لم أتصل بك تليفونيا حتى منتصف الساعة التاسعة من صباح الغد فاحضري إلى بيتي.

ولكن هذه البطاقة.. إنني لا أريد أن أكون سببا في إزعاجك.

– قلت لك انصرفي.. لن يلحقني أي ضرر.

ودفعها إلى الباب. فغمغمت: ما أنبلك.! وأعظم شهامتك.

وفجأة لم يشعر الدوق إلا وقد احتواها بين ذراعيه وطبع قبلة على شفتيها.

الفصل الثامن عشر

لم يتنفس الدوق الصعداء إلا حين سمع صوت الباب الخارجي وهو يغلق وراء سونيا. فأشعل سيجارة وراح يدخن في هدوء مترقبا عودة جوشار.

وبعد لحظات رآه يخرج من فوهة المدفأة والحيرة بادية في وجهه وهو يقول: إنني لم أجد المنديل.

فقال الدوق متظاهرا بالدهشة: لم تجده.! هذا عجيب.!

– أمتأكد أنت من أنه كان في إحدى غرف الطابق الثاني.!

– طبعا.. ولكن يجوز أنك لم تبحث عنه جيدا.

ثم قال في لهجة تدل على التهكم: لو أنني كنت مكانك لرجعت أبحث عنه مرة أخرى.

– لا داعي لذلك مطلقا.. فقد بحثت بمنتهى العناية ولكن ألا ترى

معي يا صاحب السمو أن الأمر غريب جدا.

– طبعا.. إنه غريب جدا.. ومضحك أيضا.

ونظر جوشار إلى الدوق في ارتباك. ثم دق الجرس فلما أقبل بونافنت قال له: لقد أزف الوقت.. أين الآنسة سونيا.!

فقال بونافنت في استغراب الآنسة سونيا.؟

– نعم.. يجب أن نبعث بها الآن إلى السجن.!

– ولكنها خرجت.

فصاح جوشار. خرجت. ماذا تعني.؟

– أعني أنها خرجت.. خرجت من القصر.

فصاح جوشار: خرجت من القصر.. أمجنون أنت؟

– كلا.. إنني متأكد مما أقول.

فزعق جوشار كالمجانين: ومن الذي سمح لها بالخروج.

– الشرطة الذين يحرسون الباب الخارجي.

– هذا جنون.. إنك تهذى.! إنني أمرتهم بأن لا يسمحوا لأحد بالخروج إلا إذا كان يحمل بطاقة باسمى عليها تصريح بالخروج.! ابعث إلى بهؤلاء المجانين.

وجاء الشرطيان فصاح بهما جوشار:

– كيف سمحتما للآنسة كريتشنوف بالخروج بلا تصريح مني.؟

فقال أحدهما: ولكنها كانت تحمل تصريحا منك مكتوبا على بطاقتك.!

– ماذا تقول..! إنه إذن تصريح مزور.!

وراح يتمشى في أرجاء الغرفة. ثم أمر الرجلين بالانصراف.

وتحول إلى الدوق ووقف يتفرس فيه كأنما لم يره من قبل.

وقال الدوق في صوت يفيض سخرية: مسكينة هذه الطفلة الضالة.! هل زججتها في السجن.؟ صدقني أنه عمل يزعج الضمير الحي.

فقال جوشار وهو لا يزال يتفرس في الدوق: لقد هربت هذه الطفلة بواسطة تصريح مزور.

– حقا. ما أسعدني بأن أسمع هذا! وأسألك المعذرة يا مسيو جوشار إذا كنت لا أشاطرك رأيك فإنني في الواقع شديد العطف على هذه الطفلة.

– إن طفولتها لم تمنعها من أن تكون شريكة لأرسين لوبين.!

– وهل تظن أنها شريكته حقا.؟

– بكل تأكيد. ولكن.. ولكن كيف استطاعت أن تحصل على هذا التصريح المزور.؟

فهز الدوق رأسه في سذاجة وبراءة، ونظر جوشار برهة إلى الدوق في انزعاج ثم غادر الغرفة وأوصد الباب خلفه وقال يخاطب بونافنت. متى خرجت الآنسة كريتشنوف؟

– منذ خمس دقائق على الأكثر. لقد خرجت عقب حديثها معك في هذه القاعة.

– حديثها معي. في هذه القاعة.؟

– نعم فقد خرجت على أثر ذلك مباشرة.

وشهق جوشار. وأسرع إلى القاعة وهو يركض فأخرج علبة البطاقات من جيب معطفه وأحصى ما فيها فوجد بطاقاته تنقص واحدة.

ونظر جوشار إلى الدوق. أما هذا فابتسم في وجهه وكانت ابتسامة منه ظريفة عابثة.

وهم جوشار بأن يقول شيئا. ولكنه أمسك ووضع العلبة في جيبه. ثم زعق ينادى بونافنت بملء صوته وجاء مساعده يجرى فقال له:

– هل أرسلت فيكتوار في عربة السجن.؟ نعم. منذ وقت طويل. فقد كانت العربة في الانتظار منذ منتصف العاشرة.

– منذ منتصف العاشرة.! ولكني نبهت عليهم بأن لا يرسلوها

إلا في الساعة الحادية عشر إلا ربعا.! هذه أول مرة يحافظون فيها على المواعيد بمثل هذه الدقة فيحضرون قبله بساعة كاملة. ولكن المهم أنهم نفذوا التعليمات على أية حال.

فقال بونافنت: وهل آمر العربة الأخرى بالانصراف؟

فصاح جوشار: أية عربة أخرى.؟

– العربة التي وصلت منذ دقائق.

فصاح جوشار وقد نمت نبرات صوته عن القلق. عم تتحدث يا رجل.؟ أية عربة أخرى.؟

– ألم تطلب من إدارة السجن أن ترسل مركبتين؟

فوثب جوشار وقد اشتد به الغضب وصاح: أتريد أن تقول إنه جاءت إلى هذا القصر مركبتان من مركبات السجن؟

– نعم يا سيدي.

– وفي أيهما أرسلت فيكتوار.؟

– في الأولى طبعا يا سيدي.

ألم تر الشرطي الذي كان يتولى قيادة هذه المركبة.؟

– رأيته وتحدثت إليه.

– أسبقت له به معرفة من قبل.؟

كلا يا سيدي.. فلا ريب أنه حديث العهد.

فصاح جوشار في صوت مختنق: تبا لك أيها الغبى فحملق فيه مساعده في دهش وقال: ولكن ما الذي حدث يا سيدي.؟

– ما الذي حدث.. لقد هزأ بنا.!

فقال الدوق متسائلا: من هو الذي هزأ بكم.؟

– أرسين لوبين..! أرسين لوبين طبعا.

فقال بونافنت في غباوة: إن عربة السجن التي أرسلت فيها فيكتوار عربة مزيفة.! إنها عربة أرسين لوبين.. وما هذا الشرطي الحديث الذي يقودها إلا أحد أعوانه..! لقد استطاع هذا الشيطان أن ينقذ شريكته من بين يدي.. إلا تبا له.!

فقال الدوق: إنه والله لأعظم الرجال دهاء. وهو أيضا بعيد النظر جدا. فقد توقع أنك ستعتقل فيكتوار واتخذ العدة لذلك.

فصاح جوشار: ولكن هناك حلقة مفقودة..! لقد قرر الطبيب أن فيكتوار لن تستفيق قبل الساعة العاشرة.. فكيف عرف لوبين ذلك حتى أرسل المركبة في هذا الموعد! نعم.. كيف عرف النبأ؟ هناك حلقة

مفقودة بلا ريب..!

ثم التفت إلى بونافنت وصاح به: ما بالك أيها الأبله تحملق في كالمجنون. اعمل شيئا. اذهب إلى مخدع فيكتوار وفتشه.

وعلى أثر انصرافه قال الدوق: الآن بدأت أفهم يا صديقي سر تقديرك لأرسين لوبين.! نعم. إنه داهية ذكي. وحكاية عربة السجن حيلة رائعة.

فصاح جوشار وقد اشتد به الغضب: ولكني سأقبض عليه..! نعم.. لابد أن أقبض عليه.؟ إن رجالي أغبياء بلهاء. وهم الذين يحبطون بسذاجتهم خططي.! كم من مرة طلبت إليهم أن يرتابوا في كل شيء.! لو أن هذا الغبي بونافنت ارتاب في ذلك الشرطي الحديث العهد لما حدث ما حدث! إن الشك هو شعار الشرطي الناجح.

ودق جرس التليفون فأسرع إليه جوشار ووضع السماعة على أذنه ثم التفت إلى الدوق وقال: هذا هو بستاني قصر دى شارميراس.

ثم عاد إلى التليفون وقال: نعم، أنا المفتش السري جوشار. أريد أن أعرف أسماء الذين دخلوا بالأمس إلى بيت الأزهار في حديقة القصر. نعم كلا. بل بنوع خاص أسماء الذين قطعوا شيئا من أزهار السليفيا.

فقال الدوق على عجل: ألم أنبئك بأنني أنا نفسي قطفت بالأمس

بعض أزهار السليفيا.

فالتفت إليه جوشار وقال: نعم. إنني أعرف ذلك. ثم عاد إلى حديثه التليفوني وقال: من.! الدوق دى شارميراس.؟ ليس هناك سواه.! هل أنت متأكد من ذلك.! شكرا لك.

وأعاد السماعة مكانها ثم التفت إلى الدوق وقال: إنه يؤكد يا سيدي الدوق أن سموكم الشخص الوحيد الذي أخذ بالأمس شيئا من هذه الأزهار.

فقال الدوق في غير احتفال: أقال ذلك حقا.؟

وراح جوشار يحدق الدوق بنظرة فاحصة ولكنه لم يقل شيئا.

ودخل بونافنت يقول: فتشت مخدع فيكتوار فلم أجد فيه إلا كتابا للصلاة وسورة فوتوغرافية لها.

فنظر جوشار في الصورة وقال: إنها قديمة العهد. لا ريب أنها التقطت منذ عشر أعوام على الأقل.

ثم ما لبث أن أردف: غريب جدا.! ما هذا؟

وكانت الصورة تضم غير فيكتوار فتى في السابعة عشر من العمر وراح جوشار يتأمل صورة الفتى في اهتمام وينقل بينها وبين وجه الدوق.

ومرت بعيني الدوق سحابة من القلق. وفطن جوشار إلى الأمر

فاقترب من الدوق. وراح ينظر إليه محملقا كأنما يراه للمرة الأولى.

فقال الدوق باسما: لم تحملق في بهذا الشكل.؟ هل برباط عنقي اعوجاج حتى أصلحه.؟

فقال جوشار: لا شيء لا شيء.

وعاد يتأمل الصورة مرة أخرى.

وارتفعت جلبة الحديث من الردهة فقال الدوق: يظهر أن ضيوف مسيو مارتان يهمون بالانصراف ولابد لي أن أودعهم.

وغادر القاعة وترك جوشار يحملق في الصورة.

وإذ انصرف المدعوون صعد مسيو مارتان إلى الطابق الأعلى وفي أثره جرمين والدوق.

وقالت جرمين: إن أبي مصر على أن يبيت الليلة في فندق ريتز حتى يتقى هجمات لوبين وعصابته.

فقال الدوق ضاحكا: انفضى عنك هذا الوهم. فإن من المستحيل أن يهاجم لوبين القصر الليلة وفيه كل هؤلاء الشرطة.

– إن لوبين يا صديقي رجل يلذ له أن يرمي بنفسه في أتون الخطر.

ومضت جرمين إلى مخدعها لتبدل ثيابها. أما الدوق فرجع إلى قاعة

الاستقبال فوجد جوشار مقطب الجبين وقد استغرقه التفكير. فقال له: إن مسيو مارتان وابنته سيبيتان الليلة في فندق ريتز.! وقد حاولت أن أثنيهم عن ذلك لأن هذا العمل من ناحيتهم يوحى بأنهم لا يثقون بمقدرتك على حمايتهم.

فهز جوشار كتفيه بلا اكتراث وقال: إنني أفضل أن يغادروا البيت.

وللمرة الثانية راح يتفرس في وجه الدوق فقال هذا:

– ماذا جرى.! هل رباط عنقي معووج.؟

– كلا يا صاحب السمو.

وفتح الباب ودخل مسيو مارتان وهو يقول:

– في أي زمن نعيش نحن.؟ رجل يملك قصرا عظيما ثم لا يستطيع أن يمضى فيه الليل ويضطر إلى المبيت في الفنادق فقال الدوق: ولكني لا أرى سببا يدعوك إلى مغادرة القصر.

– ماذا.! أتريد مني أن أبقى هنا فأستهدف للخطر.. ألم تقرأ برقية أرسين لوبين. (الليلة عند منتصف الليل يسطو على القصر.. إنه يعلم أن التاج موجود في خزانة مخدعى فهل تريد أن أظل في انتظاره حتى يحضر فيقطع عنقي قطعا).

– ولم لا تعهد إلى بعض رجال الشرطة بأن يحرسوك وأن يسهروا إلى جوارك داخل المخدع نفسه.. أليس هذا ممكنا يا مسيو جوشار؟

– طبعا.. وفي وسعي أن أؤكد لك يا مسيو مارتان أنك لن تستهدف لأي خطر.

– أشكرك.. إن فندق ريتز على أية حال أكثر أمنا من هذا القصر.

وجاءت جرمين في هذه اللحظة وقالت مخاطبة أباها في تهكم:

– هذه يا أبي أول مرة تلبس فيها ثيابك بمثل هذه السرعة.. ألا تنوي أن تمضي معنا يا جاك.؟

فقال الدوق: بل إنى أفضل البقاء هنا. فما يدريني أن أرسين لوبين ليس هازلا.؟ إنني شخصيا أعتقد أنه لن يجسر على المجيء.

فضحك المليونير وقال: فليحضر إن شاء. فإنه لن يجد التاج إذ أنني سآخذه معي إلى الفندق.. إنه في هذه الحقيبة.

وهز حقيبة صغيرة كان يحملها في يده. فقال الدوق:

– ليس من الحكمة أن تأخذ التاج معك.

– ولماذا.؟

– لأن لوبين لن يعجز عن السطو على فندق زيتز مادام في وسعه

– في اعتقادك – أن يسطو على هذا البيت المكتظ برجال الشرطة.! وفضلا عن هذا فقد طلب منك لوبين أن تضع التاج في مخدعك. ولكنه لم يذكر أي مخدع يقصد؟ مخدعك في القصر أم مخدعك في فندق ريتز.! ولعله وهو يكتب إنذاره كان يتوقع منك هذا العمل بالذات.. فكأنك بذلك تمهد له السبيل إلى سرقة التاج.

فصاح مسيو مارتان وقد اشتد به الخوفي: يا الهي! هذا كلام معقول.

فقال جوشار: لقد أصاب سمو الدوق فإن أرسين لوبين رجل بعيد النظر. ولعله ما بعث إليك بهذه البرقية إلا لكي يستدرجك إلى مغادرة القصر ومعك التاج.

وفتح المليونير الحقيبة وهم بأن يخرج التاج منها. ولكنه تردد وقال يخاطب الدوق: أتسمح لي بكلمة على انفراد.؟

ومضى به إلى الغرفة المجاورة وقال له: إنني الآن أشك في الناس جميعا.

فابتسم الدوق وقال: هذا طبيعي.. فإنني ما لقيت هنا إنسانا إلا وجدته يرتاب في الآخرين. فهل أنت واثق من أنك لا ترتاب في..؟

– كفى مزاحا يا عزيزي الدوق فإن الوقت عصيب..

خبرني.. ما هو رأيك في جوشار..؟

- رأيي في جوشار..؟ ماذا تعني..؟

- أيمكنني أن أتخذه محلا للثقة.؟

- طبعا. وفضلا عن هذا فإنني سأكون إلى جواره أرقبه فإذا حاول أن يسرق التاج أطلقت عليه النار.

فأشرق وجه المليونير وقال: حسنا.. سأعهد إليه بالتاج إذن.

وفي خلال هذا الحديث كان جوشار قد اغتنم فرصة انفراده بجرمين فعرض عليها صورة فيكتوار والفتى الواقف إلى جوارها وقال لها: أليست هذه صورة الدوق.؟

ونظرت جرمين في الصورة وقالت: إنها غير واضحة.

- هذا لأنها التقطت منذ عشرة أعوام.

- إذ كانت هذه هي صورة الدوق فإن التشابه بينهما ضعيف جدا.

- ولكنها تشبهه؟ أليس كذلك.؟

فقالت جرمين: نعم.. إنها تشبه الدوق الآن. ولكنها لا تشبهه كما كان منذ عشرة أعوام!.. لقد تغير كثيرا.

فقال جوشار في بطء: إذن فقد تغيرت ملامح الدوق كثيرا عما كان منذ عشرة أعوام؟

– نعم.. فقد أرهقته رحلته إلى القطب الجنوبي.. وكذلك هذا المرض الخطير الذي أصابه.! لقد أوشك أن يقضى نحبه.

– حقا.؟ وأين أصابه المرض.؟

– في مدينة مونتيديو.

وإذ فتح الباب في اللحظة ودخل مسيو مارتان والدوق أسرع جوشار يخفى الصورة في جيبه.

وأخرج المليونير التاج من حقيبته وقدمه إلى مسيو جوشار.. وهو يقول في زهو وفخار: انظر يا مسيو جوشار إنه تحفة رائعة. وإننى أعهد إليك بهذه التحفة.. وإن لي فيك ثقة عمياء.

فقال جوشار: كن مطمئنا.

وحياهم المليونير وابنته فقال الدوق: وأنا أيضا سآوى إلى مخدعى إذ إنى بحاجة إلى النوم.

ولكن جوشار صاح به: أرجو أن تبقى معي يا سيدي الدوق.

– عجبا.! كنت أظن أنك تريد مني أن أنصرف.

– بل أريد منك أن تبقى.

فقال الدوق: ولكني متعب أريد أن أنام.

فنظر إليه جوشار برهة ثم قال في لهجة تدل على التحدى:

- هل أنت خائف.؟

فابتسم الدوق وقال: إذن فقد عرفت يا مسيو جوشار كيف تستدرجني إلى البقاء.؟ نعم. سأبقى لأبرهن لك على أنني لا أخاف أحدا. حتى ولا أرسين لوبين نفسه.

فقالت جرمين: ولا تنس يا جاك أننا ذاهبان غدا إلى مرقص الأميرة فإنك لم تنم بالأمس مطلقا لأنك غادرت قصر دى شارميراس في الساعة الثامنة ولم تصل باريس إلا في السادسة صباحا. فيجب أن تناوم قليلا.

فنظر إليه جوشار وقال في صوت منخفض: هل ظللت تقود السيارة طول الليل.؟ من الثامنة إلى السادسة صباحا.؟

فقال الدوق يخاطب جرمين: اطمئني. سنذهب إلى المرقص غدا.

ولما انصرف المليونير وابنته قال جوشار: اسمح لي يا صاحب السمو بأن أصدر تعليماتي إلى رجالي.

وارتمى الدوق على أحد المقاعد يدخن. ثم أخرج ساعته فنظر فيها وغمغم: لازالت أمامنا عشرون دقيقة.

الفصل التاسع عشر

رجع جوشار إلى القاعة وقد بدت عليه أمارات الانفعال . . وجعل يتمشى في المكان وهو ظاهر الاضطراب.

ثم وقف إلى جدار المدفأة وظهره إليها فقال له الدوق: لا تقف في هذا المكان. فقط يهبط لوبين من فوهة المدفأة وينقض عليك قبل أن تملك دفاعا عن نفسك.

فقال جوشار: إننى أعلم أن سموك ستبادر إلى نجدتي وكان صوته غريب النبرات. وجعل ينظر إلى الدوق نظرات فاحصة وبعد لحظات قال الدوق: الحق أنه موقف يحطم الأعصاب.

– طبعا.. ولا ريب أنك الآن متعب لا تقوى على النضال. فلو أنى عرفت أن سيارتك أصيبت بعطب بالأمس لما سألتك البقاء.

فقال الدوق: عطب.؟

– طبعا.. إنك غادرت قصر دى شارميراس في الساعة الثامنة فلم تصل إلى باريس إلا صباحا. فهل سيارتك ضعيفة؟

– كلا.. إن قوتها مائة حصان.

– لا شك إذن أنها أصيبت بخلل في الطريق.

– طبعا وقد أخرني هذا العطل ثلاث ساعات على الأقل.

– وهل أصلحت هذا الخلل بمفردك.؟

– نعم.. ولم يرنى أحد من المارة لأن الطريق كان غالبا إذ تجاوزت الساعة إذ ذاك الثانية بعد منتصف الليل.

وتناول الدوق سيجارة من علبته وأشعلها فاقترب منه جوشار وتناول سيجارة لنفسه وهو يقول:

– أليس هذا كله غريبا.! سجائرك.. أزهار السليفيا.. الصورة الفتوغرافية التي عثرنا عليها في غرفة فيكتوار. الرجل الذي شوهد يخرج من القصر في الصباح الباكر وهو في ثياب السائق. وأخيرا هذا الخلل الذي أصاب سيارتك.

وكانت نبرات جوشار تزداد شكا كلما استرسل في كلامه.

وهب الدوق واقفا وصاح في غضب: مسيو جوشار لا ريب أنك

أفرطت في الشراب فبدأت تهذى.!

وتناول معطفه وقبعته ولكن جوشار اعترضه بقوله:

- كلا.. لا تذهب.! لا تنصرف.!

فصاح الدوق غاضبا: ماذا تعني يا رجل.؟

فارتد جوشار بضع خطوات إلى الوراء وألقى بيده على جبينه وقال في صوت خافت: عفوا يا صاحب السمو. نعم.. إننى أهذى.! لقد أفقدني هذا الموقف العصيب صوابي.

فقال الدوق: هذا جلى ظاهر.

- لقد أردت أن تبقى لتساعدني.! إننى وحدي لا أستطيع أن أواجه أرسين لوبين لوحدي.

- سأبقى إذن. ولكن يجب أن تتجلد وتستعيد هدوءك.

- نعم.. إننى مهدم الأعصاب. فأسألك الصفح يا صاحب السمو.

- حسنا. لقد نسيت كل ما بدر منك. وبعد لحظات قال جوشار: هل التاج في هذه العلبة.؟

- طبعا.

ولكن جوشار في اضطرابه لم يطمئن إلا عندما فتح العلبة ورأى

التاج مستقرا فيها ولآلئه تبهر الأبصار.

وقال جوشار: إن التاج حقا في العلبة.. فلننتظر الآن.

- ننتظر أي شيء.؟

- مجيء أرسين لوبين طبعا.

- لوبين.؟ وهل تعتقد أنه سيحضر حقا.؟ كأنى بك يا صديقي تروى قصة خرافية.! عندما تدق الساعة نصف الليل سيختفي التاج بقوة السحر.!

فقال جوشار: نعم سيختفي التاج.! ولكن ألا يضايقك الانتظار.؟

- كلا.. فإنني في الواقع أتمنى أن أقابل هذا الشيطان الذي هزأ بك أعواما طوالا دون أن تمس شعرة من رأسه.

وارتسمت على شفتى الدوق ابتسامة تحد واستفزاز. ومرت بضع دقائق وهما صماتان.

وأخيرا قال الدوق فجأة: إننى أسمع وقع أقدام.!

فانتفض جوشار من خواطره وقال: إننى لم أسمع شيئا.

وما مرت لحظات حتى أصبح وقع الأقدام مسموعا وأعقبه نقر على الباب. فقال جوشار: إنك أرهف مني أذنا.! إن لك كل الميزات

التي تجعل منك شرطيا سريا.

ولما فتح الباب لقى أمامه بونافنت الذي قال له:

– ها قد جئتك بالأصفاد يا سيدي. فهل تحب أن أبقى معك؟

– كلا.. وهل وزعت الرجال كما أمرتك.؟

– نعم.. رجلان عند الباب الخلفي واثنان عند الباب الأمامي. وواحد في كل غرفة من غرف الطابق الأرضي. وثلاثة رجال في كل طابق من الطوابق الأخرى.

– والمنزل المجاور.؟

– أقمت فيه عشرة رجال.

– حسنا.. وإذا رأيتم شخصا يحاول الدخول فاقبضوا عليه.. وإذا أدى الأمر. فأطلقوا عليه النار.

ولما انصرف بونافنت قال الدوق: الحق أننا الآن أشبه بمن هم في قلعة حصينة.

فقال جوشار باسما: بل هذا القصر الآن أكمل تحصينا من القلاع.! إن في هذه الردهة أربعة رجال.!

وأشار إلى باب القاعة المفضى إلى الردهة.. فقال الدوق في لهجة

تدل على القلق: حقا.؟

– ترى هل يضايقك ذلك.؟

– يضايقني.؟ إنه على العكس يسرني.. إذ لن يجسر لوبين وهو يرى كل ذلك على أن يقتحم علينا هذه القاعة.

فقال جوشار في صوت متمهل:

– نعم لن يكون اقتحام القصر سهلا كما كان يتصور.. إلا إذا خرج علينا من بطن الأرض.. أو إلا إذا..

وسكت.. فقال الدوق: أو إلا إذا كنت أنت أرسين لوبين.

فقال جوشار: وإذ ذاك ستكون أنت أرسين لوبين الثاني يا صاحب السمو!

وضحك الرجلان.

وتناول الدوق معطفه وقبعته وهو يقول:

– إنني ذاهب إلى فراشي.. إذ لا داعي لإبقائي مع قيام كل هذه الاستعدادات إذ يستحيل أن يحضر لوبين.

فصاح جوشار: ثق أنه سيحضر يا صاحب السمو.

– رباه. ما هذه الأوهام يا جوشار.

فقال الشرطي في إصرار: ثق أنه سيحضر وأننا سنراه

– هراء وهذيان.

فقال جوشار في صوت خافت وهو يحدج الدوق بنظرة فاحصة:

– إن أرسين لوبين موجود هنا الآن فعلا.

فصاح الدوق: موجود هنا.؟ أين هو؟

فقال جوشار في بطء: إنه متنكر.

فقال الدوق في دهش: متنكرا.! أهو أحد رجالك متنكرا؟

– كلا.. بل إنه متنكر في صورة أخرى.

فهتف الدوق: في هذه الحالة لن يفلت منا.! لا ريب أنه سيقتحم هذه القاعة عاجلا ليسرق التاج.

ووضع قبعته على المنضدة إلى جوار التاج.

وقال جوشار: ليته يفعل. ولكني أظن أنه لن يجسر.

– ماذا تعني.؟

– ألم تقل سموك منذ لحظات أننا في قلعة حصينة. فهل يجسر لوبين على مهاجمة هذه القلعة؟ ما رأيك أنت في ذلك يا صاحب السمو.

وكانت نبرات جوشار تدل على التحدي. فنظر إليه الدوق في استغراب ثم قال: أتسألني رأيي وأنت الذي تعرف لوبين وأساليبه

منذ أعوام طويلة.؟

وقال جوشار في صوت متهدج: نعم. ففي خلال هذه الأعوام العشرة الماضية عرفت أرسين لوبين وخبرت فنه وأسلوبه.! لقد تعلمت مناوراته ودرستها حق الدرس. إنه لا يفر هاربا من أعدائه وإنما يفاجئهم بغتة ويوجه إليهم أشد الضربات. في عزم وفي سرعة.! لقد هزأ بى طويلا ولكني الآن عرفت سره. وفي وسعي أن أتنبأ بحيله قبل وقوعها.. آه إنى أراك تبتسم يا صاحب السمو.

فقال الدوق: الواقع إن حديثك لذيذ مسل.

فقال جوشار في حنق مكتوم: ولكنه لن يهزأ بى في هذه المرة.! ليست هناك حيل أو خدعات.! ولا دهاليز تحت الأرض. ولا منافذ سرية أو أبواب خفية.! إنها معركة عادلة. معركة تجرى في فيض من النور.! وإذ ذاك لن تجديه جرأته.! نعم. إن لوبين جرىء. ولكنها جرأة اللصوص لا جرأة المغامرين؟

فقال الدوق وقد تألقت عيناه: أهذا إذن هو رأيك في أرسين لوبين.؟

– نعم إنه جرىء جرأة اللصوص. ولكنه في الصميم شخص عادي ليس على شيء من النبوغ. وهذه الخدعات والمناورات التي يقوم بها شيء عادي يمكن أن يفكر فيها أي شخص عادي.

فابتسم الدوق وقال: يخيل إلى أن رأيك هذا بعيد عن الصواب.

وراح كل من الرجلين يتفرس في صاحبه في نظرة تنطوي على التحدي.

وقال الدوق: ولكن أرسين لوبين فيما سمعت قد عمل أعمالا تدل على الذكاء والدهاء وسعة الحيلة.

فقال جوشار في استخفاف: وما هي هذه الأعمال بالله عليك.

– أوه.. يجب أن تنصفه يا جوشار.. إن سرقة هذا القصر كانت عملية بارعة... وسرقة السيارتين أيضا.

فقطب جوشار جبينه ولم يقل شيئا. فاسترسل الدوق:

– وسرقة السفارة البريطانية.. وسرقة الخزانة العامة.. وحادث مسيو ليبان.. كل هذه الحوادث قد وقعت في أسبوع واحد.. وفي تدبيرها يدل على النبوغ.

فصاح جوشار: كلا.. فإن...

ولكن الدوق قاطعه بقوله: وكيف تنسى يا صديقي حيلته البديعة حين تنكر على صورتك أنت.! بالله.! أرسين لوبين اللص يتجاسر فيتنكر في صورة جوشار الشرطي العظيم.

فقال جوشار على عجل:

– لقد فعل ما هو أعجب من هذا. فلم لا تحدثنا عن ذلك.؟

– عن أي شيء.؟

فقال جوشار وهو يحدج الدوق بنظرة فاحصة:

– لم لا تحدثنا عن خدعته الرائعة حين تنكر على صورة الدوق دى شارميراس.؟

فصاح الدوق: عجبا.؟ أفعل هذا حقا.؟ إننى لم أسمع بهذا النبأ إلا منك أنت الآن.

فقال جوشار مسترسلا:

– وأمتع في هذه الخدعة أنه أوشك أن يتزوج على اعتبار أنه هو الدوق دى شارميراس.

– هذا غريب.. فالمفروض أن الزواج لا يلائم لوبين.

– ولكن هذه الزيجة تلائمه بنوع خاص فالفتاة جميلة وسترث ملايين لا تحصى.

فقال الدوق: وما يدريك أنه مع ذلك لن يتزوجها إن من المحتمل أنه يحب فتاة أخرى.

فقال جوشار متهكما: ولعل هذه الفتاة الأخرى سارقة من طرازه.!

ألم أقل لك يا سمو الدوق إن المرأة نكبة على أرسين لوبين. إن هيامه بهذه الفتاة السارقة هتك سره واستطاع بعض الناس أن يدركوا أن الدوق دى شارميراس هو أرسين لوبين.

– يا لها من حكاية مسلية.!

وهتف جوشار في ابتهاج: كان في نيته أن يذهب غدا إلى مرقص الأميرة. ولكنه بدلا من ذلك سيذهب إلى السجن.! بل سيذهب إليه الليلة.. نعم.. الليلة.؟

وارتفع صوت جوشار يدوى في أرجاء القاعة وهو يقول:

– نعم. الليلة سأقبض عليه.! لقد حانت ساعة الانتقام.! اليوم سينتقم جوشار لما أصابه في خلال هذه السنوات الماضية.! جوشار الأبله كما يصفه لوبين.! فما رأيك في ذلك يا صاحب السمو.! ألا ترى أن قصتي لذيذة مسلية.!

فقال الدوق وهو ينهض واقفا إنها قصة مسلية.! ولكني أرى الخوف ماثلا في عينيك.!

فضحك جوشار وقال: أنا الخائف أم سواى.؟

فقال الدوق في غضب: إنك تجاوزت الحد أيها الشرطي.! لقد أصغيت إلى قصتك التافهة فطافت برأسك الوساوس.! ألا تعلم أننى

الدوق دى شارميراس.؟

فصاح جوشار وقد اشتد به الانفعال:

– إنك تكذب.! أنت أرسين لوبين.! إنك لوبين.! إننى أعرفك.!

فقال الدوق في استخفاف: وهل تستطيع أن تبرهن على ما تقول.؟

– سأبرهن.! نعم. سأقيم الدليل على ما أقول.؟

– محال.! إننى الدوق دى شاميراس.

فضحك جوشار هازئا فقال له الدوق: لا تضحك ابنى العزيز.!

فصاح جوشار مقاطعا: «بنى العزيز».! هذه.. جملتك التي اعتدت أن ترددها.! نعم.. أنت لوبين..

فضحك الدوق وقال: ما هذا الهذيان.! أمعنى ذلك أن دليلك على أننى لوبين هو أننى نطقت بعبارة «بنى العزيز».. يا له من برهان سيجعلك هزأة الناس؟ ماذا.! أمثالك يتجاسر على أن يقبض على الدوق دى شارميراس من أكبر رجال المجتمع الباريسى. والعضو في نادي الجوكي ونادي الاتحاد وخطيب ابنة المليونير جورناى مارتان.! هذا كثير! إنك واهم يا بني العزيز.! سيقول لك رؤساؤك إنك مجنون إن أردت أن تمس شعرة من رأس الدوق دى شارميراس.!

فصاح جوشار في جنون: لص.! نذل.!

فقال الدوق يتحداه: هيا. اقبض على إن استطعت! ستكون هزأة الدنيا بأسرها.! ناد رجالك ولكن لا تنسى يدك خلو من أي دليل ضدى.!

– ولكني أعرف كيف أجمع هذه الأدلة.

– يجوز.. في وسعك أن تجمع هذه الأدلة بعد شهر أو أسبوع أو غدا. أما الليلة فلا.. الليلة لن تقبض على.

فقال جوشار في يأس: ومع ذلك كفاني فخرا أننى منعتك من سرقة التاج.!

فضحك الدوق وقال: سترى يا بني العزيز.! أتعرف ما وراء هذا الباب.؟

وأشار بيده إلى باب الغرفة المجاورة. فدار جوشار على عقبيه في حركة سريعة ونظر إلى الباب في هلع وقال:

– ما الذي وراءه.؟

فضحك الدوق وقال: يا لك جبان.! وأنت الذي تريد أن تقبض على لوبين.! إننى أرثى لك.!

ومسح جوشار جبينه الذي تصبب عرقا فقال الدوق:

– كلما أشرفت الساعة على منتصف الليل اشتد بك الرعب.!

وسكت الدوق ثم صاح فجأة: حذار.!

فانتفض جوشار رعبا. فقهقه الدوق ضاحكا وقال:

– يا للجبان.! إنك خائف.. فزع.! ومع ذلك فإننى أعذرك.! هناك شيء رهيب سيقع بعد دقائق. عندما تدق الساعة منتصف الليل..! رباه. ترى ما يكون هذا الشيء المجهول.! لا تحاول أن تبتسم يا رجل. فإن وجهك شاحب كالأموات.. إنك ترتعد فرقا.!

وأبرقت عينا الدوق ببريق مخيف وقال جوشار:

– أتحسبني أخاف أرسين لوبين.؟ إن رجالي في الخارج وهم مسلحون. فضحك الدوق وقال ساخرا:

– يا لك من غر أبله.! ألا تعلم أن لأرسين لوبين قوة خارقة. وإنك قد تدبر وتضع الخطط وتعد العدة لكل شيء ولكن بغتة يقع حادث ما يحبط كل تدبيراتك.! حادث رهيب غير متوقع.!

فقال جوشار: إذن فأنت تعترف بأنك أرسين لوبين.!

فابتسم الدوق وقال: واعجبا لك.! كنت أحسبك على يقين من الأمر فإذا بك تنتظر مني إقرارا.!

وصاح جوشار: رباه.. أي شيء يحول دوني واعتقالك.

– هيا اقبض على. بشرط أن تبرهن على أنني أرسين لوبين..

– بعد ثلاث دقائق سأقبض عليك.. إلا إذا تعهدت بأن لا تمد يدا إلى التاج.!

فضحك الدوق هازئا وقال:

– بعد ثلاث دقائق سيسرق التاج.. ولن تقبض على.!

– بل سأقبض عليك.. أقسم أننى سأقبض عليك!

قال الدوق في هدوء: لم تبق إلا دقيقتان..

وأخرج الدوق مسدسا فصاح جوشار وهو يخرج مسدسه بدوره:

– إياك أن تطلق على النار وإلا قتلتك.!

فقال الدوق في استغراب:

– أطلق عليك النار.! لعلك تهذى.! إننى ما أخرجت مسدسي إلا استعدادا لمنازلة أرسين لوبين.! فلم يبق على موعده إلا دقيقة واحدة.!

ومشى جوشار إلى الباب وهو يقول:

– إن معي عددا كبيرا من رجال الشرطة.!

– يا لك من جبان.! أتخاف أن تلقى لوبين بمفردك.!

فأخذت الحمية جوشار وقال:

– إذن فلن أدعو أحدا من رجالي.!

– هذا يدل على حماقتك.! فلوبين أقوى منك وأدهى.!

وعض جوشار على شفته حنقا. وأرفض جبينه عرقا فصوب مسدسه إلى الدوق وهو يقول في انفعال:

– سأقتلك بلا تردد إذا تحركت من مكانك.

– وفي هذه الحالة سترسل إلى المشنقة. لأنك بذلك تكون قد قتلت الدوق شارميراس وليس أرسين لوبين.!

– فليكن.. إننى لا أبالي.!

– لم تبق إلا خمسون ثانية.!

وراح جوشار ينقل نظراته بين التاج والدوق وهو يقول:

– احذر لنفسك.

– بل احذر أنت. فإن التاج سيسرق الآن.

فصاح جوشار: إنه لن يسرق.

– بل سيسرق.!

– كلا.. لن يسرق..! لن يسرق.!

وبدأت الساعة ترسل دقاتها إيذانا بانتصاف الليل. وأخذ جوشار يرتعد. ولما أكملت الساعة دقاتها الاثنى عشرة قفز الدوق صوب المنضدة

التي فوقها التاج. فظن جوشار أنه سيختطف التاج ووثب خلفه. ولكن الدوق ابتسم وقال في هدوء:

أتسمح لي بأن آخذ قبعتي.؟

وتناول قبعته الموضوعة إلى جوار التاج. فقال جوشار: لقد أفزعتني.!

ثم أخذ التاج وهو يقول: ها قد حلت دونك وسرقة التاج.!

فابتسم الدوق وقال: أتظن ذلك.؟ إنك واهم يا صديقي.

– واهم.! وهذا التاج الذي بين يدى.؟

فضحك الدوق وقال: كنت أحسبك يا جوشار أذكى من هذا..! ألم تلاحظ أن التاج خفيف الوزن.؟ ألم تدرك أنه تاج مقلد.؟

ونظر جوشار في رعب إلى التاج. فأدرك أن حجارته من زجاج. فصاح في صوت المخنوق ينادى رجاله.

– بونافنت.. ديوزى.. تعالوا.. ادخلوا.!

وجاء رجال الشرطة يركضون فقال لهم الدوق في لهجة حزينة:

– لقد سرق التاج أيها السادة.

فغمغموا في دهشة والتفوا حول رئيسهم يسألونه عما حدث. وكان

المسكين قد عانى الويلات في خلال هذه الساعات الأخيرة حتى تهدمت أعصابه فلم يقو على الكلام وإنما انفجر يبكي.

ولما سكنت ثائرته قال: أين هو.؟

فقالوا متسائلين: من هو.؟

- الدوق طبعا. الدوق دى شارميراس.

- لقد انصرف.

فصاح جوشار كالمجنون: انصرف.. انطلقوا وراءه اقبضوا عليه. إنه ليس الدوق شارميراس. إنه أرسين لوبين.

الفصل العشرون

في بيت الدوق دى شارميراس في شارع الجامعة وفي مخدعه الخاص كان ثلاثة أشخاص مجتمعين:

هم كارولیه وابنه برنارد ومدام فيكتوار. وكانوا يتحدثون في جزع عن أرسين لوبين ويتساءلون عن السر في تأخره.

وقال كارولیه: ربما عاقه عن الحضور أن الشرطة يطاردونه الآن. فلم يجسر على المجيء.

وقال برنارد: وماذا نفعل إذا داهم البوليس البيت.؟ هل نعدم أوراقه أو نبقيها.؟

وقالت مدام فيكتوار: ترى هل يظفرون به.!

واقترب كارولیه من النافذة وقال: إننى رى مخبرا سريا وأحد رجال البوليس يركضان. وقد وقفا يتحدثان إلى الشرطيين اللذين

يراقبان هذا البيت.. يا إلهي.! إنهم جميعا يجرون إلى هذه الناحية.!

فصاحت فيكتوار: وما العمل الآن.!

وقرع الجرس بشدة فبان الرعب في وجوههم.. وتسمروا مكانهم لا يتحركون.. وفي تلك اللحظة سمعوا دوى المصعد المتصل بالردهة مباشرة داخل المسكن. ثم فتح باب المصعد ومنه خرج الدوق دى شارميراس.. ولكنه كان يبدو تعبا ملطخ الثياب بالأوحال.. وكانت أنفاسه متلاحقة.

وصاح كارولیه في فرح: لقد جاء الزعيم سالما.

وقالت فيكتوار في انزعاج: ما بك.! مريض أنت؟

فهز رأسه نفيا ولم يجب. ودق جرس الباب الخارجي مرة أخرى فقال لوبين: افتح الباب يا كارولیه. ولكن في بطء.. تظاهر بأنك تحرك المزلاج. واختبئ أنت يا فكتوار.. أما أنت يا برنارد فأحجب المصعد.

وذلك إن في جوار المصعد رفوفا للكتب تتحرك بالضغط على أحد الأزرار فتحجب باب المصعد فلا يراه أحد.

وإذ فتح كارولیه الباب دخل ديوزرى وبونافنت يركضان أما الشرطي الرسمي فلزم الباب يحرسه.

وقال ديوزى: مادام قد رجع إلى بيته فلن يهرب منا.

وأخذ يرتقيان الدرج مسرعين. فصاح بهما كارولیه:

تمهك.. وإلا زعجتما سمو الدوق فإنه مستغرق في نومه.

فقال ديوزى ساخرا: مستغرق في نومه.! لقد أمضى ليلته يجرى.! ولا أكتمك أنه عداء بارع..!

وفتح باب المخدع في هذه اللحظة. وظهر على عتبته أرسين لوبين مرتديا ثياب النوم وقال في صوت يدل على الغضب: ما هذه الضجة..! آه.. إنكما من رجال جوشار.. أليس كذلك..؟

وكانت سحنته تدل على أنه استيقظ من النوم منذ لحظات فجمد بونافنت مكانه وقال في ارتباك: نعم يا صاحب السمو.

– ماذا تريدان.؟ لا شيء! لا شيء يا صاحب السمو..! إنها غلطة.!

فقال الدوق في كبرياء: إن جوشار المسئول عن هذه الغلطة.. وسينال جزاءه. أما أنتما فانصرفا. ودخل إلى مخدعه وأوصد الباب فقال ديوزى: هذا هو الدوق.. أما لوبين فرجل آخر. لقد أخطأ جوشار.

– طبعا.. فمن المحال أن يكون هذا هو لوبين الذي كان يجرى طول الليل ونحن نطارده.

ولما انصرف الشرطيان أسرعت فيكتوار إلى مخدع لوبين فوجدته بادى الإعياء فربتت على كتفيه في حنان فقال لها: لقد كانت ليلة رهيبة يا أماه.!

وحدثها بما كان. وكيف فتح الخزانة بالمفتاح المسروق أثناء استغراق مسيو مارتان في النوم وسرق التاج الحقيقي ووضع مكانه التاج المقلد. وما كان من الحوادث التي تعاقبت بعد ذلك وكيف أنقذها هي وسونيا من السجن.

وقال أخيرا: ولقد كان في وسعي بطبيعة الحال أن أنصرف بعد أن سرقت التاج. ولكني فضلت أن أبقى لأشبع نفسي شهوة التهكم على جوشار والسخرية به. وفعلا مضيت ساعات لذيذة هزأت به في خلالها كما أشاء. وقد انصرفت عند انتصاف الليل ولكني أخطأت إذ غادرت القصر وأنا أجرى اعتقادا مني بأن جوشار سيطلق رجاله في أثرى. فكان ركضى هذا سببا في إثارة شبهات البوليس الذي يخفر القصر فانطلقوا جميعا في أثرى. وظللت أجرى بضع ساعات حتى كدت أموت تعبا.. وها قد جئت إليكم أخيرا لأراك وأرى سونيا.

فقالت مدام فيكتوار:

– سونيا! آه! وقعت في الغرام مرة أخرى؟ إن المرأة هي التي ستقضى عليك! وأقسم أنه لولا هذه الفتاة سونيا لما استهدفت لهذه الأحجار!

فضحك لوبين وقال: ولكنها تستحق أن أستهدف من أجلها الخطر.

الفصل الحادي والعشرون

حين فرغ لوبين من تناول طعامه جلس يتحدث إلى مدام فيكتوار ويقول: إنني عاشق وسأتزوج وستكون سونيا هي زوجتي.. وإذا ما تزوجت أقلعت عن حياة اللصوصية.

فقالت: أصبت! فإن حياة اللصوصية لم تسبب لك إلا المتاعب والأخطار.

ودق جرس التليفون في هذه اللحظة. وكانت جرمين هي التي تتحدث وقد طلبت إليه أن يحضر للقائها في فندق ريتز.

وقالت فيكتوار: لا تذهب.! إذ لا ريب أنهم نصبوا لك فخا.

فقال في استخفاف: سأكون حريصا. ومع ذلك فلو كان لدى جوشار دليل ضدي لما انتظر أن حضر إلى الفندق. ولبادر من فوره ليقبض على هنا.! إن الأدلة موجودة في هذه الخزانة.. ففيها التاج وشهادة الوفاة الخاصة بالدوق دى شارميراس الذي انتحلت شخصيته.

وفتح الخزانة وأخرج منها محفظة جيب صغيرة وهو يقول:

– من حسن حظي أنني أحتفظ بالوثائق المثبتة لوفاة دوق وإلا لاتهمنى جوشار بأنني قتلته.

فقال كارولیه:

– ولو أنك أردت أن تقتله لكان حسبك أن تفتح نافذة مخدعه وهو مريض. فيقتله تيار الهواء. ولكنك بدلا من ذلك سهرت على علاجه.

الواقع أننى كنت أحبه لأنه كان شديد الشبه بي. وحين سطوت على قصره منذ ثلاثة أعوام ورأيت صورته أدهشني شبهه العجيب بي.. ولهذا سرقت صورته واحتفظت بها.

– وبذلك استطعت أن تتنكر بحيث تزداد به شبها.

– ولكني الآن سأتخلى عن هذه الشخصية.. فاستعدوا للسفر.

ودق الجرس إذ ذاك. فلما ذهب كارولیه يفتح الباب وجد إزاءه الشرطي السري بونافنت وقد تنكر في زي خدم الفندق زاعما أنه جاء برسالة للدوق: فقال له كارولیه: انتظر إذن حتى يفرغ سموه من ارتداء ثيابه.

وما كاد كارولیه يصعد إلى الطابق الأعلى حتى انطلق بونافنت في أثره. فقدم إليه كارولیه مقعدا ودعاه إلى الانتظار في قاعة التدخين.

وقرع الباب الخارجي في هذه اللحظة.. فهبط كارولیه مرة أخرى لينظر من الطارق وقطع أسلاك التليفون بمقص كان يحمله في جيبه. وإذ رأى على منضدة المحفظة التي أخرجها لوبين من الخزانة تناولها على عجل ودسها في جيبه. ثم رجع إلى مقعده. كأنما لم يفعل شيئا.

وفتح باب المخدع وظهر على عتبته أرسين لوبين وسأل بونافنت عما يريد فقال هذا وقد غير من صوته:

– إننى قادم من فندق ريتز أحمل خطابا للدوق دى شارميراس.

– إننى الدوق. فأين الخطاب.؟

وفض لوبين الخطاب وهو يقول: انتظر فقد أحملك ردا.

وجاء كارولیه يقول: لقد سمعت طرقا عنيفا على الباب. ولكن من الغريب أننى لم أجد أحدا.

ولو أن كارولیه عرف سر الأمر لما استغرب. فقد كان الطارق زميلا لبونافنت المتنكر أراد أن يشغل كارولیه حتى يتيح لصاحبه فرصة يقطع فيها أسلاك التليفون.

وكان هذا رد الخطاب:

«سيدي لقد كاشفني مسيو جوشار بكل شيء. ولم يدهشني أن

تحب سونيا فإنك لص مثلها. ولما كنت قد تأكدت أن الدوق دى شارميراس قد مات منذ ثلاثة أعوام فقد عولت على أن أتزوج ابن عمه مسيو ريلزيير لأنه الوريث الوحيد لهذا اللقب.»

«بالنيابة عن الآنسة جرمين مارتان» خادمتها إيرما.

وابتسم لوبين إذ قرأ هذا الخطاب ونادى كارولیه قائلا: اجلس.. فإننى أريد أن أملي عليك خطابا. إن هذه هي تقاليد الأوساط الراقية فيما يظهر.

وراح يملى عليه الخطاب التالي:

«سيدتي، إن الصدمة لم تقتلني وسأتشرف بأن أبعث إليك بعد ظهر اليوم بهدية العرس المتواضعة».

فصاح كارولیه في فزع: هل أكتب «لوبين».؟

فابتسم لوبين وقال: ولم لا.؟ أليس هذا هو اسمى. وأدوع الرسالة غلافا ودفع بها الى بونافنت.

وسار هذا صوب الباب. وفجأة انقض عليه لوبين وطرحه أرضا وهو يقول: إذا حاولت المقاومة خنقتك.. كارولیه أخرج محفظتي من جيب هذا الشرطي الأبله.!

لقد سرقها من فوق المنضدة وظن أن تنكره خدعني.

وبعد أن استرد محفظته قال: يجب أن تتعلم المصارعة اليابانية فإنها تفيد في بعض الأحيان. والآن أذهب الى رئيسك وقل له إن عليه أن يلقاني وجها لوجه لو كان شجاعا.

فصاح بونافنت في حنق: لن تمضي دقائق حتى تتحقق أمنيتك.؟

الفصل الثاني والعشرون

التفت لوبين إلى أصحابه عقب انصراف بونافنت وقال: هيا. غادروا البيت من الباب السري وإلا باغتكم جوشار.

- وأنت..! ما يكون من أمرك.؟

- سأوافيكم عاجلا.. أسرعوا.!

واستقل كارولیه وابنه المصعد السري. أما مدام فيكتوار فتخلفت عنهما قائلة: سأبقى معك قليلا.

ومضى لوبين إلى التليفون ليتحدث إلى سونيا ولكنه فطن إلى أن الأسلاك مقطوعة فقال: جميل جدا.! ها قد استعمل جوشار في منازلتى إحدى الخدع التي تعلمها مني كيف أحذر سونيا إذن.

فقالت مدام فيكتوار: ولم لا تذهب إليها.؟

- إننى لا أعرف لها مكانا. لقد أنبأتنى أنها ستنزل في فندق بميدان

استار ولكنها كانت ناسية اسمه فلم تذكر لي إلا رقم التليفون. لابد لي من انتظارها إذن فقد أشرفت الساعة على الثامنة وهو الموعد المتفق عليه بيننا.

فصاحت مدام فيكتوار: مجنون أنت حتى تنتظرها.؟ أتريد أن يقبض عليك جوشار.!

ولكنه – رغم هذه النصيحة – أبى أن يتخلى عن سونيا!

وقرع الباب فقالت مدام فيكتوار: وها هي ذى سونيا قد جاءت.!

– بل إن الطارق هو جوشار..! افتحي له الباب.. وتوارى خلفه عندما تسحبين المصراع.. فإذا ما رآني انطلق إلى مسرعا ولم يفطن إلى وجودك. فتغادرين البيت فورا وتنتظرين سونيا في الطريق. فامضى بها إلى مطعم باسى وسأوافيكما عاجلا.. هيا أسرعى.

وجلس لوبين في قاعة التدخين وراح يطالع إحدى الصحف.

وسمع صرير الباب الخارجي وهو يفتح. ثم وقع أقدام تصعد الدرج مسرعة.

ووقف جوشار عند باب قاعة التدخين يحملق في أرسين لوبين وقد استولت عليه الدهشة.. كان يتوقع أن يجد لوبين ممددا في الفراش.. فإذا به يراه جالسا في انتظاره في هدوء كأنما سيستقبل ضيفا عزيزا..!

وقال جوشار: ماذا..؟ ألعلك كنت تنتظرني..؟ أرجو إذن أن لا أكون قد أبطأت..؟

– كلا مطلقا.. وعلى فكرة دعني أؤكد لك أسفي لسرقة التاج.! لقد حزنتنى هذه الكارثة غير المنتظرة.!

وبعد سكتة قصيرة قال لوبين: لقد فر خدمي جميعا خوفا من رجالك. فلا يسعني بكل أسف أن أقدم إليك قدحا من القهوة.

فقال جوشار باسما: اطمئن.. سأقبض عليكم جميعا.

– أتوسل إليك إذن أن تبادر إلى ذلك قبل أن يحل موعد دفع المرتبات.! وعلى فكرة. لا داعي مطلقا لأن ترفع قبعتك عن رأسك.! نعم لا داعي مطلقا.!

ومد جوشار يده إلى قبعته ليرفعها. ولكنه ما لبث أن أرخاها وجلس فقال له لوبين: ألديك أمر باعتقالي.

– طبعا.

– باسم من.؟ أرسين لوبين أم الدوق دى شارميراس.؟ أرسين لوبين الذي ينتحل اسم الدوق دى شارميراس.

– آه. أراك قد اتخذت كل حيطة ممكنة.؟ ما الداعي إلى الانتظار إذن؟

- إننى أشبع في نفسي شهوة الانتصار.
- حقا.. أتحسب نفسك إذن قد انتصرت على.؟
- طبعا.! وهل يداخلك الشك في ذلك.؟
- إن أوان هزيمتي لم يحن بعد يا صديقي.؟
- إنك واهم.. أتدري أين سونيا الآن.!

فصاح لوبين في صوت حاد: ماذا تقول.؟

- أقول إننى أعرف مكان سونيا.. إنها الآن في فندق صغير في ميدان استار ورقم تليفونه ٥٥٥ سنترال.

وقطب لوبين جبينه وقد أحس أن قلبه تحطم.

وبعد سكتة قصيرة قال: جوشار.! ينبغي أن تدع هذه الطفلة المسكينة في سلام.. إنك تبغضني.. وتريد أن تقبض على.. ولست أنكر أننى أتعبتك وهزأت بك طويلا.. ولكن هذه الطفلة.! إنها شقية تعذبت كثيرا وقاست.. فدعها وشأنها.! اقبض على إذا شئت. ولكن دعها وشأنها.!

فقال جوشار: هذه مسألة تتوقف عليك أنت.؟

- ماذا تعني.؟

- إنها صفقة رابحة تلك التي أعرضها عليك..
- ماذا تعني.. أفصح.!
- إننى أعرض عليك حرية المرأة التي تحبها.!

فضحك لوبين وقال: الحق إنك مساوم بارع.!

ونظر في ساعته وقال: أتقسم بشرفك على أنها لن تستهدف لأي أذى.؟

- أقسم بشرفي.
- ولكن تلك السرقات القديمة.؟
- سأضيفها إلى حسابك وأقول إنك أنت السارق.

فابتسم لوبين وقال: هذا حل عادل. فإن إضافة بضع سرقات صغيرة لن يزعج ضميري.! ولكن ما الذي تسألني لقاء حريتها.؟

- كل شيء.. عد إلى السجاجيد.. والصور.. والمكاتب الأثرية والتاج. وجميع الوثائق الخاصة بوفاة الدوق دى شارميراس. ولكن خبرنى هل قتلته.؟
- ما أسوء ظنك بى يا جوشار. أتحسبني أسفك الدماء.!
- ما هو جوابك إذن على هذا العرض.!

ودق جرس الباب فقال لوبين: دعني أفكر برهة.

وما جدوى التفكير.؟ ثق أننى سأقبض عليها كما قبضت على فيكتوار.!

– رباه.. هل قبضت على فيكتوار.! ولكن أي دليل لديك ضد سونيا؟ وهل من العسير أن أحملها على الاعتراف.!

فصاح لوبين: يا لك من وغد.!

وبعد سكتة قصيرة قال لوبين: إنها في الواقع صفقة رابحة لي.! أنال حرية سونيا وفيكتوار ثم أسترد المسروقات ثانية.

فقال جوشار متهكا: طبعا ستستردها ولكن بعد خروجك من السجن.

– ولكنك نسيت يا صديقي أنه لكي أخرج من السجن يجب أن أدخله أولا.

– وستدخله الليلة.!

– محال.. وسوف ترى.. لن أقبل ما تعرضه على.. ومع ذلك سأنقذ سونيا.

وفتح الباب في هذه اللحظة ودخل ديوزى يخطر رئيسه بقدوم سونيا فصاح جوشار: اقبض عليها.! اقبض عليها! فانبعث لوبين واقفا كالنمر الهائج وصاح: دعها وشأنها.. لا تمد إليها يدا.!

– هل قبلت إذن..؟

ولم يكن له مناص من أن يحني رأسه موافقا. فلما انصرف ديوزى

قال لوبين: والآن فلنحدد الشروط مرة أخرى إنك تسألني أن أرد إليك الصور والسجاجيد والمكاتب والتاج ووثائق الدوق دى شارميراس.. ومقابل هذا لن يتعرض أحد بسوء للآنسة سونيا.؟ أليس كذلك.؟

– تماما.. سأنسى على الفور أن سونيا سارقة.

– مهما وقع بعد ذلك.؟ أعني أنك لن تتعرض لها حتى بفرض أننى استعدت هذه المسروقات ثانية أو بفرض أنى هربت منك؟

فضحك جوشار هازئا وقال: نعم.. حتى ولو استعدتها أو هربت.

– إذن قبلت الصفقة.! في هذه المحفظة جميع الوثائق الخاصة بوفاة الدوق دى شارميراس وفيها أيضا قسائم شحن المسروقات.. وقد أرسلتها إلى محطة تنبول التي ذكرتها في خطابي صراحة.. لأنني كنت واثقا من أنك لن تبحث في هذه المحطة مادمت قد ذكرت اسمها.

– ولكن أين التاج.؟

وأشار لوبين إلى حقيبة في ركن الغرفة. فتناول جوشار التاج وفحصه. وغمغم: إنه التاج الحقيقي.! والآن مد يديك للقيد.!

الفصل الثالث والعشرون

دارت الأغلال حول رسغي لوبين فقال: لولا حسن حظك لما وقعت تحت رحمتك. ! ولكن ألا تسمح لي بمقابلتها قبل أن أذهب إلى السجن ؟ .

– أسمح.! سأدعوها طبعا لترى هزيمتك.

وأمر مساعده بأن يدعو سونيا. فوقف لوبين بالقرب من النافذة. وكان حريصا على أن يخفي الأغلال التي في يده حتى لا تراها سونيا. وسمع صوت جوشار في الردهة وهو يقول لها:

– يجب أن تشكري الدوق يا سونيا فهو الذي أنقذك.. لن يقبض عليك فهتفت: هو الذي أنقذني.!

وأسرعت إلى قاعة التدخين تشكره. ولكنه أدار ظهره إلى ناحيتها قليلا حتى لا ترى الأغلال. فتسمرت على العتبة وقد بان اليأس في

وجهها وقالت: رباه.. لقد ظننت بالأمس أنك عفوت عني.! إننى منصرفة إذن.

فقال لوبين في صوت حزين: سونيا.!

فصاحت في صوت مختنق:

– إننى أفهم حقيقة شعورك.. ولكني أقسم لك أننى قد ندمت.. ومحال أن أسرق مرة أخرى.! لأنى أصبحت أكره أرى لصا أمامي.

فاحمر وجه لوبين وصاح: اصمتي.. اصمتي.!

ولكنها استرسلت: أقسم لك أننى الآن أكـره اللصوص واللصوصية.! ولن ألوث يدى مرة أخرى.

وراحت تبكي. فقال لها: سونيا.. إنك تعذبينني.

– إننى راحلة.! هذا بيننا فراق الابد. ولكن قبل أن أرحل يجب أن تعلم الحقيقة.! لقد أحببتك بكل جوارحي. ومحال أن أنساك.! ومن أجل هذا الحب.. من أجلك أنت أصبحت امرأة شريفة. فوداعا. ولكن أرجوك أن تصافحني قبل رحيلي.

واقتربت خطوة منه ولكنه صاح: كلا.. ابتعدي.. لن أصافحك.! فصاحت وهي تبكي رباه! أترفض مصافحتي ولكني أقسم أننى

ندمت وعدت امرأة شريفة.!

وقال لوبين في صوت متهدج: سونيا.! اصغى إلى. منذ لحظات قلت إنك تكرهين اللصوص واللصوصية. وإنك تكرهين أن ترى لصا أمامك.

– نعم. وأقسم لك على ذلك.؟

وفي هذه اللحظة جاء جوشار إلى الغرفة. وقال لوبين: ولكن هبى إننى لست الرجل الذي تظنين. هبى إننى لست الدوق دى شارميراس.

– لست الدوق.؟ ماذا تعني.؟

– هبى أننى لست رجلا شريفا كما تظنين..! افرضي إننى لص..! افرضي أننى.. وسكت. فقال جوشار: أرسين لوبين.!

وتحول إليها ومد يديه نحوها بالأصفاد.

وصاحت سونيا: أنت أرسين لوبين.! إذن فقد افتديتني. بحريتك.! إذن فأنت تحبني.!

ووثبت إلى صدره وغمرت وجهه بالقبلات.

فهز جوشار رأسه وقال: وهذه هي المرأة التي تكره اللصوص واللصوصية.

وقال لوبين: نعم إننى أحبك يا سونيا.. وقد طهر في هذا الحب رجلا شريفا.! بعد اليوم لن ألوث يدى مرة أخرى.

وقال جوشار في خشونة: هيا بنا فقد أزف الوقت.

ودخل بونافنت راكضا وهو يقول: لقد اهتديت إلى المدخل السري. ولكننا لم نستطع بعد أن نفتح الباب.

واغتنم لوبين هذه الفرصة وهمس في أذن سونيا وهو يضمها إلى صدره:

- انتظريني مع فيكتوار في البهو.. فإن أمروا لكما بالخروج فانتظرانى في الطريق. إننى لن أذهب إلى السجن ثم قبلها وطلب إليها أن تنصرف.

وقال جوشار: والآن هيا بنا إن مركبة السجن في انتظارك.

فابتسم لوبين وقال: ولكني لا أريد أن أذهب الليلة إلى السجن.؟ إننى مدعو إلى تناول العشاء في السفارة الإنجليزية.

فصاح جوشار: كفى..! فليس هذا أوان المزاح.. لقد أصبحت الآن خبير بمناوراتك وخدعك.!

- ولكنك طبعا تجهل هذه الخدعة.!

وراح يحرك يديه.. ويلويها.. ويثبها.. مرة بعد أخرى.. وأخيرا.. استطاع أن يخرجها من الأغلال.. وقال إنها لعبة ظريفة تعلمتها من الساحر الشهير مازيني.

وقال مسترسلا وهو يبتسم: ولم يكن لي مفر من هذا.. كان لي أن أختار بين السجن وسونيا.. وقد اخترت أن أعيش مع سونيا.

ورمت عيناه ببريق مخيف. فصاح جوشار ينادى رجاله. فاندفعوا إلى القاعة مسرعين. وارتد لوبين بضع خطوات إلى الوراء ورفع غطاء صندوق من الورق المقوى كان موضوعا على إحدى المناضد. وتناول منه قنبلة صغيرة الحجم وقال احـذروا.! إياكم أن تقتربوا مني.! أتريدون أن أرمي هذه القنبلة..! ارفعوا الأيدى وارموا مسدساتكم إلى الارض.

وتراجعوا في فزع فصاح بهم جوشار: لا تخافوا..! إنه يهوشكم.!

فقال بونافنت: إن لوبين لا يعرف العبث يا مسيو جوشار انظر إلى عينيه..! إنه يبدو أشبه بالمجانين..! إن في نظراته بريق الجنون.

وقال ديوزى: نعم إنه جن.. وسيرمي القنبلة.!

فصاح لوبين: نعم. إنى جننت.! إنى هائم حبا بسونيا. فإما أن أعيش معها وأما أن أنهب إلى السجن فمحال. محال.!

وقال ديوزى يتوسل إلى رئيسه: دعه يا سيدي وإلا أهلكنا جميعا.

وقال بونافنت: دعه وإلا نسفنا نسفا.!

فصاح جوشار في غضب: تبا لكم أيها الجبناء.! سأواجهه وحدي إذن.

وتقدم خطوة إلى الأمام. فرفع لوبين يده قائلا:

- إذن سأرمي القنبلة.

ولكن بونافنت وديوزى صاحا به: لا تفعل.

وانقضا على رئيسهما مع الآخرين وأمسكوا بذراعيه وهو يصيح غاضبا متوعدا.

وقال لوبين: في جيب رئيسكم محفظة خاصة بي فهاتوها.. والتاج في جيبه الثاني.

فصاح جوشار: محال أن أعيدها إليك.!

- إذن سأرمي القنبلة.!

وتألقت عيناه جنونا.. فصاحوا به انتظر.!

وأخرجوا المحفظة والتاج من جيب رئيسهم وهو يقاومهم ويلعنهم. وقدموهما إلى لوبين.

وضغط لوبين زرا خفيا وسط رفوف الكتب فتحركت وانكمشت عن المصعد السري. فدخل إليه لوبين والقنبلة لازالت في يده. وقبل أن يغلق على نفسه باب المصعد قال لهم: والآن أستودعكم الله.! أرجو أن تكونوا قد تركتم وصاياكم.!

ورفع يده وطوح بالقنبلة في وسطهم. فصاحوا مذعورين وتراجعوا إلى الوراء وقد انكفأوا على وجوههم وتعثر بعضهم في بعض. ولكن القنبلة لم تنفجر إذ لم تكن إلا كرة من المطاط صنعت على شكل القنبلة.!

وقد اغتنم لوبين فرصة هذا المخرج فأوصد باب المصعد فهبط به مسرعا إلى الطابق الأرضي.

وصاح جوشار برجاله: أسرعوا أيها البلهاء.! إلى الباب السري والباب الأمامي.. وإلى الشارع.. راقبوا كل منافذ البيت.

أما جوشار وديوزى فقد راحا يبحثان عن زر المصعد السري ليلحقا بلوبين. وفيما هما منهمكان في البحث سمعا دويا.. فلما نظرا وجدا المصعد أمامهما خاليا وبابه الحديدي مفتوحا.

فصاح جوشار بصاحبه: ها هو ذا المصعد.. هيا بنا ننطلق في أثره.

ودخلا المصعد مسرعين. وأغلقا الباب. وضغط جوشار زر الطابق الأرضي. ولكم كانت دهشته حين رأى المصعد يرقى إلى الأعلى بدلا

من أن يهبط إلى الأسفل.!

ولكنه لم يبلغ الطابق الأعلى. وإنما وقف بغتة في الفضاء بين الطابق الثاني والثالث وقد أحاطت به الجدران القائمة.!

وراح جوشار يضغط الأزرار واحدا بعد الآخر والمصعد جامد مكانه لا يتحرك.!

وكانت هذه إحدى خدعات أرسين لوبين. فقد أعد مصعدين أحدهما ذلك الذي هبط به أما التالي فهو الذي استغله جوشار. وهذا المصعد الثاني يتجه دائما في عكس اتجاه المصعد الأول ويسكن في الفضاء بين الطابقين. حتى يستحيل على مطارديه اللحاق به.

وراح جوشار يزعق منادي ويضرب جدران المصعد بيديه. في الوقت الذي كان فيه لوبين هابطا بمصعده إلى الطابق الأرضي.

وفي أثناء هبوط المصعد أسرع لوبين ففتح درجا في المصعد مكتظا بأدوات التنكر. وما مضت لحظات حتى كان قد تنكر على صورة جوشار وأخرج من درج آخر معطفا شبيها بمعطف جوشار وارتداه. ثم نظر في المرآة ضاحكا وقال: لو نظر إلى جوشار لحسب أنه ينظر في مرآة.!

وخرج لوبين من المصعد فوجد سونيا في انتظاره في البهو. ووجد شرطي يحرس فيكتوار فقال له وهو يقلد صوت جوشار: تعال.. قف عند باب هذا المصعد.. إن فيه ديوزى وأرسين لوبين يتعاركان ويتضاربان. ألا تسمع صوت العراك.؟ - نعم يا سيدي.! إن الضجة واضحة.

كانت الضجة بطبيعة الحال ناشئة عن طرقات جوشار وديوزى على جدران المصعد.

- حسنا. بمجرد هبوط المصعد انقض على لوبين. ولكن إياك أن تستعمل مسدسك مهما حدث.! واطفى هذا النور حتى لا يتبينك لوبين جيدا عند خروجه من المصعد فيتقى هجمتك.. إنك تعرف ديوزى وهيئته. فالرجل الثاني سيكون لوبين بطبيعة الحال. اهجم عليه بلا تردد. وامنعه من الفرار.! إنه قد يخدعك فيزعم إنه جوشار فلا تصدقه كما أنه قد يتنكر على صورتي. إن قبضت عليه أمرت بترقيتك.

- شكرا لك يا سيدي.

- أما فيكتوار هذه فسترافقني في سيارتي.! والآن انتبه.. كن شجاعا.. وأد واجبك.!

ورفع الشرطي يده إلى رأسه بالتحية العسكرية.

لقد ضغط لوبين زرا خفيا قبل انصرافه.. وما هبط المصعد حتى كان الشرطي حريصا على أداء الواجب. وترك ديوزى وانقض على الرجل الثاني.! وكان موقنا من أنه لوبين متنكرا على صورة جوشار.

ودام الصراع بينهما برهة وجوشار يصيح: دعني أيها الغبي.؟ إننى جوشار..! إننى رئيسك.!

وأخيرا فطن الشرطي إلى غلطته.

وصاح جوشار: أين هم. لوبين. سونيا. وفيكتوار

فقال الشرطي مجيبا: لقد استقلوا سيارتك.!

وانطلق جوشار إلى الباب الخارجي ورأى سيارته تسابق الريح إلى.. إلى شهر العسل.!

وضرب كفا بكف وهو يقول: عليه اللعنة.! إنه شيطان لا إنسان.!

تمت